روايات عبير



مارغريت روم

على حدّ السّيف

١٨٢

روايات عبير

HARLEQUIN – "ABIR" – No. 182

على حدّ السيف

يقال ان الحب كالشمس يحرق وينير. وحب سلفاتوري ديابولو كان ناراً عاشت ثلاثين عاماً لتصل الى عائلة روزاليا روسيني. انها النار المتقمة اشعلها سلفاتوري في قلب روزاليا التي احبته بكل جوارحها. الا ان الكراهية بين العائلتين تكونت قبل مولدهما والسعي للانتقام والثأر للشرف الرفيع سبق حبهما.

روزاليا الجميلة كيف تغسل الاهانة وتزيل الحقد وتهنأ بحبيبها، وصقلية موطن الثأر المتوارث عن الأجداد؟ حبها قاتلها؟ سعادتها سبب شقائها وحزنها؟ الحب يعني الحياة، اما حب روزاليا فكان يعني العيش على حد السيف والموت لأفراد العائلتين المتناحرتين. هل تقبل بحب ملطخ بالدم؟ تسعد بقلب شمسه تحرقه؟ انها تؤمن ان الحب غفران وايمانها هذا اقوى سلاح في هذه الحرب الشرسة.

١ - جدها الثري المستبد

اقتربت ابريل من ابنة خالها الحادثة، وقالت لها باندفاع ندمت عليه فيما بعد:

- روزاليا! ما رأيك في الذهاب معي هذا العام الى سيتا ديل مونتي؟

فتحت قريبتها عينيها باستغراب بالغ لمجرد سماعها اقتراحاً للقيام بشيء خارج عن النمط العادي المألوف في حياتها، وأجابتها بتلعثم واضح:

- لا . . . ! شكراً يا ابريل! لا اقدر على ذلك!

قالت السمراء الجذابة لنفسها ان آخر شخص تود اختياره لمرافقتها في رحلتها السنوية المرتقبة الى صقلية هو قريبتها المحافظة الى حد التطرف، والتي لا تعرف عن الحياة شيئاً سوى عملها وبيتها. ومع ذلك، فقد حدقت

بها وقالت لها بانفعال:

- لم لا، اخبريني بربك، لم لا؟ انت لا تذهبين الى اي مكان ولا تفعلين اي شيء على الاطلاق، باستثناء مساعدة والدتك في عملها والتقوقع في البيت ثم... ثم ان الجد روسيني يتمنى عليك القيام بزيارته.

انتظرت ابريل رد فعل روزاليا، وهي تشعر ضمناً بخجل شديد بسبب اسلوب الخداع الذي تستخدمه مع ابنة خالها البريئة. فهي لا توجه اليها هذه الدعوة حباً بها أو رغبة في الترفيه عنها، ولكن لأن جدهما الثري المتسلط طالبها بها في العام السابق... بلهجة حازمة وصارمة. تذكرت كلامه فيما كانت جالسة قربه على المقعد الخلفي في سيارته الفخمة التي يقودها سائقه ومرافقه الخاص كانا متوجهين آنذاك لتعود منه الى عملها الممل في بلاد الضباب والمطر والبرد، تاركة وراءها حياة الترف والجاه والدفء. هل يليق بحفيدة الكونت بياترو روسيني دي سيتا ديل مونتي ذي النفوذ الهائل والثروة الطائلة، ان تعيش في هذه البلدة البريطانية المتواضعة كأي فتاة عادية لا تحصل على لقمتها الا بعد التعب والعذاب؟ هل يعقل ان تنسى تلك الفيللا الجميلة على شاطىء باليرمو، وتلك القلعة التاريخية التي بناها مؤسس هذه العائلة العريقة منذ اجيال عدة على اعلى قمة في الجزيرة، ووسط مساحات شاسعة من البساتين والحقول الغنية بكافة انواع الفاكهة والخضار؟ وماذا ايضاً عن تلك المبالغ المذهلة التي ينفقها عليها جدها القاسي بدون حساب، وكذلك تلك الثياب الفخمة التي يطلبها لها من اشهر دور الأزياء العالمية؟

قالت له قبل وصولهما الى المطار ببضع دقائق انها تتوق الى الاقامة معه بصورة نهائية ودائمة، ولكنه ابتسم بسخرية وتجاهل السؤال بشكل تام. كريم، سخي، ومستعد لغض النظر عن معظم الأخطاء السخيفة التي قد ترتكبها في حضوره وغيابه؟ نعم، ولكنه بالتأكيد ليس عاطفياً أو حنون القلب اطلاقاً. انها تعرف حق المعرفة ان جدها يتمتع بوجودها معه، ويتباهى كثيراً بحفيدته الرائعة الجمال امام جميع اصدقائه وأقرانه. ولكنها تعرف ايضاً انه يجد لذة فائقة في استخدام قوته ونفوذه معها، ويسعد الى درجة كبيرة في ابقائها معلقة امامه كتفاحة حمراء شهية... الى ان يحين موعد قطافها ورميها على طائرة العودة! داعب المقبض المرصع بالجواهر

الثمينة لعصاه الأثرية النادرة، وسألها فجأة بصوت ناعم يرهق الأعصاب:

- هل ترين ابنة خالك كثيراً، عندما تكونين في بريطانيا؟

تذكرت ابريل الدهشة القوية التي شعرت بها في تلك الآونة وبخاصة لأنه لم يتحدث ابداً قبل ذلك عن حفيدته الأخرى. اجابته بلهجة هادئة الى حد ما، وهي تحاول قدر الامكان اخفاء حيرتها واستغرابها:

- ازورها بين الحين والآخر، ولولا ذلك لما كانت هناك بيننا أي لقاءات تذكر. فهي لا تخرج ابداً من البيت... ويبدو انها سعيدة جداً بمساعدة امها طوال النهار في اعداد الحلويات وبيعها، وبمجالستها والتحدث معها في المساء. على اي حال، لم تهتم أي منهما اطلاقاً بالحياة الاجتماعية وتبادل الزيارات... حتى عندما كان خالي انجيلو حياً يرزق.

لاحظت ابريل فوراً مسحة الألم في ملامح وجهه القاسي، لمجرد سماعه اسم ابنه الراحل، ولأنه قرر على ما يبدو تحميلها مسؤولية ذلك الضعف الذي اظهره للحظة وجيزة، فقد قال لها بنبرة باردة تحمل في طياتها القساوة والعنف اللذين تعرفهما جيداً عن هذا الرجل:

- اريد رؤية ابنة خالك معك، عندما تأتين لزيارتي في العام المقبل. اذا تمكنت من تحقيق ذلك، فلن تذهب جهودك دون مكافأة.

افاقتها الخسارة المحتملة لأمور علة من احلام اليقظة، وأعادتها الى عالم الواقع، شبه المظلم الذي تعيشه حالياً... بالمقارنة مع الحياة المترفة التي تصبو اليها، فناشدت قريبتها الصامتة بالقول:

- روزاليا، انت مدينة لجدنا بزيارة واحدة على الأقل. الست، على اي حال، الطفل الوحيد لابنه البكر... والحفيدة الوحيدة التي تحمل اسمه؟ ثم... ثم انه لم يرك بعد اطلاقاً، وقد اصبح المسكين...

توقفت ابريل عن متابعة كلامها، وهي تتظاهر بأنها غصت من الحسرة والألم. ثم تنهدت ومضت الى القول، غير عابئة بكذبها وخداعها:

- تدفعه الشيخوخة والأمراض المتلاحقة الى حافة قبره بسرعة ودون شفقة أو رحمة، وأمنيته الوحيدة في هذه الأيام هي ان يراك ولو لمرة واحدة قبل موته. كيف يمكنك حرمانه؟

غطت ابريل وجهها بسرعة، وكأنها على وشك الاجهاش بالبكاء. وما ان اعادت يديها الى مكانها وفتحت عينيها الخضراوين الساحرتين، حتى

شاهدت ما كانت تتمناه وتتوقعه. رأت الحزن والأسى يخيمان على عيني قريبتها الزرقاوين، وملامح الألم والتأثر بادية بوضوح في نظراتها وعبر جبينها وحاجبيها. تنهدت روزالبا الطيبة القلب، وقالت لابنة عمتها بصوت يوحي بمدى الصعوبة البالغة التي تجدها في التصدي لهذا الابتزاز العاطفي الصريح:

ـ يحز في نفسي كثيراً ان اكون سبباً في ايلام جدنا، وبخاصة في اواخر حياته. ولكنك تعرفين الظروف التي ادت الى هذا الوضع المؤسف، يا ابريل، ولا داعي بالتالي لذكر تفاصيل السبب الذي يجعل من احتمال زيارتي له امراً مستحيلاً. انها مسألة اخلاص ووفاء تجاه والدتي، وكذلك بالنسبة لذكرى والدي، رحمه الله.

تضايقت ابريل من رفض روزالبا القاطع، وذلك بالنظر الى الآمال الكبيرة التي عقدتها على نجاح اسلوبها الذكي المقنع في حمل ابنة خالها على تعديل موقفها من جدها. الا انها اصرت على ابقاء لهجتها رقيقة وصوتها ناعماً، عندما قالت لقريبتها وهي تتظاهر بالابتسام:

ـ اوه! انها قصة قديمة جداً وقد حان الوقت لطي صفحتها الى الأبد!

نظرت روزالبا الى ابنة عمتها بشكل يوحي بالرثاء والشفقة، وقالت لها مؤنبة معاتبة:

ـ موقفك هذا بعيد كل البعد عن حدة الطباع التي يشتهر بها اهالي صقلية، وأنت تعرفين ذلك حق المعرفة.

اغتنمت ابريل فرصة الحديث عن الأصل والانتماء، وقالت لها بزهو كأنها حققت انتصاراً معنوياً بارزاً:

ـ ولكنك نصف بريطانية ووالدتك بريطانية مئة بالمئة، ولا يجوز لك بالتالي التمسك بهذا العذر أو تطبيقه. الا تذكرين المشاجرات العديدة التي كانت تقوم بيننا في الماضي، والمحاضرات المطولة التي كانت تلقيها علينا امك بعد كل منها، حول حسنات الغفران وتناسي الأحقاد... والحاجة الى اخذ آراء الآخرين بعين الاعتبار؟ هل تحاولين الايحاء الآن بأنني كنت واهمة ومخطئة تماماً... في اقتناعي بأن والدتك تطبق كافة القيم والمبادىء التي علمتنا اياها؟

كانت ابريل تعلم انها ليست قادرة على اثارة اعصاب روزالبا الهادئة،

بغض النظر عما تقوله لها. ولذلك، فانها لم تشعر بأي دهشة أو استغراب عندما سمعت قريبتها ترد عليها بصوت رقيق ناعم:

ـ لم تحدثني امي ابداً عن اقربائنا في صقلية. كل ما اعرفه عن الموضوع هو ان نزاعاً نشب بين ابي والجد روسيني، وان والديّ تعرضا نتيجة لذلك الى معاناة شديدة وعذاب لا يطاق. وبما ان اياً من ابي أو امي لم يكشف لي قط اي تفاصيل عما جرى، فأنا بالتالي لست قادرة على البدء بتوزيع التهم جزافاً أو القاء مسؤولية ما حدث على هذا الفريق أو ذاك.

صمتت روزالبا برهة، فلاحظت ابريل للمرة الأولى في حياتها ملامح الانفة والافتخار التي يتميز بها افراد عائلة روسيني تبرز واضحة جلية في نظرات ابنة خالها وعلى وجهها وجبينها. وسمعتها تنهي جملتها بالقول:

ـ اذا قررت والدتي يوماً اطلاعي على تفاصيل ما جرى، فسوف اكون متأكدة وواثقة عندئذ من ان كل كلمة تقولها ستكون الحقيقة... كل الحقيقة ودون زيادة أو نقصان. فأنا لم اعرفها يوماً الا سيدة صادقة، امينة، وعادلة حتى التطرف. الا توافقينني على هذا القول؟

شعرت ابريل بتأثر بالغ وبخجل عميق لأنها حاولت التشكك، ولو جزئياً أو هامشياً، بسيدة احبتها واحترمتها اثناء طفولتها... الى درجة انها كانت تمضي الساعات الطوال بانتظار ظهور هالة القدسية فوق رأس زوجة خالها... أو خالتها، كما تسميها وتناديها دائماً. ومما زاد في تعلقها بهذه القريبة الطيبة الكريمة ان امها الايطالية كانت ولا تزال تلقى من زوجة اخيها معاملة انسانية ورقيقة للغاية كلما استنجدت بها أو لجأت اليها... وكم كانت تلك المرات عديدة ومتلاحقة! وهل يمكنها ان تنسى الجملة المأثورة، التي كانت ترددها والدتها مراراً كتعبير عن امتنانها اللامتناهي لزوجة اخيها؟:

ـ شكراً، شكراً، يا اغلى انيتا في الدنيا. انت ملاك لتتحملي اعبائي ومتاعبي، ولا ادري ماذا كان سيحل بي هنا لولا وجودك ايتها الحبيبة.

ومع ان روزالبا ورثت عن امها الطباع الهادئة والتعقل والحنان، الا انها ليست بعيدة جداً عن التفاخر والعناد اللذين حالا دون رأب الصدع القائم بين افراد عائلة روسيني. فاذا ارادت ابريل الحصول على تلك المكاسب والمكافآت المغرية التي علقها جدها امامها، كما يعلق الطعام امام

عنق الحمار ليركض بسرعة واندفاع نحو الهدف، فما عليها الا اقناع ابنة خالها بمرافقتها! . . ولو اضطرت لتحقيق ذلك الى استخدام كافة انواع الكذب والاحتيال. وضعت يدها على كتف روزالبا ثم تنهدت وقالت لها مناشدة متوسلة:

- اتمنى ان تعيدي النظر في موقفك هذا، يا عزيزتي، فالأمر هام جداً بالنسبة الي كشابة في مقتبل العمر. ذلك ان رحلة القطار من هنا الى لندن، وبخاصة عندما تكون الشابة وحدها، مملة وموحشة. . . ومخيفة احياناً. فبعض الرجال يعتبرون الفتاة الوحيدة لقمة سائغة وفريسة سهلة، وفي كل عام تزيد الأمور سوءاً عن الأعوام السابقة. قد اقرر الغاء رحلتي هذه السنة، ان لم توافقي على الذهاب معي، فمجرد التفكير بالذهاب وحدي واحتمالات تعرضي للاعتداء، وربما للقتل، يرهق اعصابي ويوترها بشكل غريب.

اخفت ابريل الارتياح والسرور، عندما شهقت روزالبا وسألت ابنة عمتها بانفعال ظاهر:

- لماذا تذهبين اذن؟

استخدمت ابريل جميع طاقاتها ومواهبها التمثيلية والاحتيالية لاقناع قريبتها بمرافقتها الى صقلية، فقالت لها بصوت حزين جداً وعينين شبه دامعتين:

- اذا اختبرت يوماً مثلي مدى سرور الجد روسيني وسعادته اثناء ترحيبه بي وملاقاته لي، لو شاهدت نظرات التفاؤ ل والفرح في عينيه كلما تطلع نحوي وتحدث معي، أو سمعت كلامه الرقيق العذب الى اصدقائه عن اقدام حفيدته كل عام على القيام بهذه الرحلة المرهقة لا لشيء الا لرؤ ية جدها العجوز والتخفيف مؤقتاً عن عذاب وحدته وشيخوخته، أو رأيت الحزن والألم العميقين في عينيه المتعبتين كلما حان موعد ذهابي وشعرت بالآمال الضخمة التي يعلقها على احتمال عودتي في السنة المقبلة. . . اذا حدثت معك هذه الأمور مرة واحدة، يا روزالبا، فصدقيني انك لن تضطري ابداً بعدها الى توجيه سؤ ال كهذا!!

ازداد تفاؤ ل ابريل بنجاح خطتها واسلوبها، عندما شاهدت ابنة خالها تقطب حاجبيها وتغرق في التفكير والتحليل العميقين. فعدم الرفض

الفوري والقاطع، هو، بحد ذاته، خطوة كبيرة نحو الانتصار. لم تحاول قطع الصمت المطبق الذي خيم عليهما فجأة، بل راحت تتأمل بهدوء وروية التبدل الواضح والمتلاحق في ملامح قريبتها الجميلة. كان التمنع في بداية الأمر سيد الموقف، ثم تحول الى تردد وعدم قدرة على اتخاذ القرار المناسب، ومنهما الى صراع نفسي وتأثر وانقباض. . . ثم الى استسلام وقبول. فحتى روزالبا نفسها كانت تجهل انها مؤمنة كلياً وحتى التطرف بمبدأ الاخلاص للعائلة، الذي يوليه ابناء صقلية اهمية فائقة ويطبقونه دون تردد. وانطلاقاً من ايمانها بالروابط العائلية القوية، وخوفها مما قد يحدث لابنة عمتها اثناء الرحلة الطويلة، رفعت روزالبا رأسها بتمهل وقالت:

- لن اعدك بشيء، يا ابريل، ولكنني سأتحدث مع امي بصدد امكانية ذهابي معك الى صقلية. انا متأكدة من انها ستشاطرني الشعور ذاته بالنسبة الى موضوع الأخطار التي قد تتعرضين لها، اذا سافرت بمفردك.

رقصت ابريل فرحاً وبهجة، وهي تتخيل الهدايا الثمينة التي سيغدقها عليها جدها، وقالت لروزالبا بسرور بالغ:

- انه قرار عظيم! شكراً، شكراً، يا روزالبا. اذا تمكنت من اقناع والدتك بالموافقة على ذهابك معي، فلن تندمي على ذلك اطلاقاً. . . لا بل انك ستستمتعين جداً بهذه الرحلة، بحيث انك ستظلين ممتنة لي طوال حياتك!

هزت روزالبا رأسها، دونما اي تعليق على كلام ابريل. فهي لم تكن اصلاً راغبة في السفر الى الخارج، أو في لقاء ذلك الجد الذي لا يهمها اطلاقاً. . . على الرغم من تأثيره السلبي والمؤلم على حياة والدتها. أليس جدها الرجل الذي يكفي ذكر اسمه فقط امام والدتها، حتى تتحول البشاشة شبه الدائمة في وجهها الى عبوس. . . والفرح والسرور في عينيها ونظراتها الى حزن وأسى؟ الم يتجاهل والدتها وجوده بصورة تامة، وتتجاهل بسببه كل ما هو ايطالي من عادات وتقاليد ولغة. . . وحتى اطباق الطعام اليومية؟

انتظرت روزالبا حلول وقتها المفضل، لمفاتحة والدتها بموضوع الذهاب الى صقلية. تناولت وأمها طعام العشاء الخفيف، ثم نظفتا المائدة وتوجهتا الى قاعة الجلوس الصغيرة لشرب فنجان من القهوة. جلست روزالبا في

مكانها المعتاد . . . في الزاوية الشرقية لتلك الغرفة الجميلة، التي ارادها والدها حصناً منيعاً يحمي زوجته وابنته الحبيبتين من قساوة العالم الخارجي وشروره. قالت لأمها، بعدما تأكد لها انها اصبحت مرتاحة تماماً:

ـ هل ستحزنين وتتألمين، يا امي، اذا اقترحت امر ذهابي مع ابريل في رحلتها المقبلة الى صقلية؟

اعادت الأم الهادئة فنجان القهوة الى الطاولة، وقالت:

ـ لن استخدم كلمة الحزن أو الألم لوصف رد فعلي على هذه الفكرة أو شعوري تجاهها، ولكنني قد اختار كلمة القلق . . . لأنها تفسير افضل وأقرب الى الحقيقة.

ـ وانا قلقة ايضاً، يا امي. فقد اخبرتني ابريل انها تجد الرحلة في القطار من هنا الى لندن مخيفة ومرعبة، ويبدو انها تعرضت في اكثر من مناسبة لمضايقات مرعبة للغاية.

حاولت امها الابتسام، وهي تقول لها بلهجة هادئة نسبياً:

ـ وانت تريدين مرافقتها، لتأمين الحماية الضرورية لها؟

احمر وجه روزاليا خجلاً، لدى سماعها ذلك الاستهزاء الذي لم تألفه من قبل، وقالت بشيء من التأثر:

ـ لا، يا امي، فانا اعرف قدراتي الضعيفة في هذا المجال. ولكن ألا تعتقدين بأن احتمالات تعرّض ابريل الى مضايقات الرجال الأشرار تكون اقل بكثير، عندما تسافر برفقة شخص آخر؟

اغمضت السيدة روسيتي عينيها، وهي تحاول تحديد مدى سذاجة ابنتها في هذا المجال، ثم سألتها بصراحة ودون مواربة:

ـ هل استخلصت ابريل فعلاً مسألة الخوف من السفر بمفردها، كسبب لحملك على مرافقتها؟

ذهلت روزاليا لسماعها تلك السخرية غير المعهودة في كلام امها، فاكتفت بهز رأسها. ولكنها ازدادت حيرة واستغراباً، عندما مضت والدتها الى القول بنبرة قوية:

ـ لا اصدق ذلك بتاتاً! فابنة عمتك قادرة تماماً على الاعتناء بنفسها، ولا يمكن بالتالي ان يكون السفر سبباً حقيقياً لهذا الطلب. لا شك في ان لديها دافعاً ما نجهل حقيقته، ولا استغرب اطلاقاً ان يكون جدك المحرض على

هذه الدعوة.

ابعدت الأم وجهها بسرعة عن ابنتها، الا انها لم تتمكن من اخفاء الدموع التي انسابت على وجنتيها. احست روزاليا بتأثر شديد، فجلست على الأرض ووضعت رأسها على ركبتي والدتها، قائلة بمحبة واخلاص:

ـ آسفة! آسفة جداً، يا امي! آخر شيء اريده في هذه الحياة هو ايلامك أو الحاق الأذى بشعورك النبيل. انسي الجد روسيتي، وصقلية، وكل كلمة قلتها بهذا الخصوص. لن اذهب الى صقلية أو الى اي مكان آخر، اذا كانت الفكرة تؤلمك وتحزنك!

وضعت الأم يدها على رأس ابنتها بحنان ورقة، وقالت بصوت رقيق ناعم عادت اليه السكينة المعتادة:

ـ اهدأي يا صغيرتي الحبيبة. فانا لم اتأثر بسبب فكرة ذهابك الى صقلية، ولكن . . . لأنني تذكرت والدك الطيب كنتيجة لذلك.

ثم اضافت بصوت يرتعش تحسراً، حتى على الرغم من محاولاتها الجاهدة للسيطرة عليه:

ـ مضى الآن عامان على وفاته، ومع ذلك . . . ومع ذلك، فلوعة خسارته وألم فقدانه لا يزالان في ذروتها وكأن الحادثة وقعت امس أو اليوم.

دمعت عينا روزاليا لدى سماعها كلام امها عن ابيها المحب، وقالت متمتمة:

ـ هل كان سيوافق على ذهابي الى صقلية ومقابلة جدي؟

ـ لا، يا عزيزتي، واعتقد ان الوقت قد حان لاطلاعك على سبب ذلك.

شعرت روزاليا بأن ما ستسمعه من والدتها لن يكون مجرد ايضاح لمشكلة عائلية معقدة، بل مشاطرة سر دفين وتخفيف عبء معنوي ثقيل. قالت لها الأم الرصينة:

ـ لكي تفهمي موقف والدك جيداً، علي اولاً التحدث قليلاً عن شخصية جدك وبعض صفاته. ومع ان كل ما سأقوله لك سيكون بالطبع نقلاً عما سمعته، الا ان ثقتي العمياء بصدق ابيك التام وعدم تحيزه المثالي حتى الى نفسه، تحملني على تكرار كلماته دونما اي تشكك في صحتها المطلقة.

وضعت الأم يدها على كتف ابنتها، وكأنها على وشك البدء برواية قصة

لا اساس لها في التاريخ المعاصر. ثم مضت الى القول:

ـ كانت عائلة روسيني منذ قرون عدة، ولا تزال حتى الآن، عائلة ثرية للغاية وذات نفوذ عظيم. وقد يفسر هذا الأمر الى حد ما سبب طغيان جدك وتسلطه، حتى مع افراد عائلته. لم يكن احد يجرؤ على التردد لحظة في تنفيذ اوامره، وتلبية طلباته، وتحقيق رغباته. ونشأ كل من والدك وعمتك كاترينا منذ صغرهما على اطاعته بصورة عمياء ودون اي اعتراض أو مناقشة، واعتبار كلامه قانوناً صارماً يجب تطبيقه حرفياً وبشكل فوري. كان حازماً مع الجميع... مع زوجته وخدمه وعماله ولكنه كان قاسياً الى درجة مذهلة مع ولديه. اصر على ان يعملا يومياً الساعات الطوال في الحقول والبساتين، ومشاركة العمال والفلاحين اعمالهم وطرق حياتهم ومعيشتهم. حرمهما مقابلة رفاقهما القلائل الا نادراً، لأنه لم يمنحهما سوى فترات قصيرة للراحة أو اللعب.

احست روزاليا باشمئزاز شديد، ولكنها لم تحاول مقاطعة والدتها... التي بدت وكأنها تجد صعوبة في تذكر تفاصيل لم تسمعها الا مرة واحدة قبل سنوات عديدة. هزت الأم رأسها، ومضت الى القول:

ـ المعروف ان الصقليين لا يعطون اولادهم ثمن اتعابهم، بل يضعون كافة الأرباح والمداخيل في صندوق العائلة... الذي يستخدم ايضاً لتغطية جميع النفقات، بما فيها ثمن خاتم الخطوبة الذي يبتاعه الرجل لزوجة المستقبل. وهذا يعني ان الابن لا يحق له الانفراد بأي مبلغ من المال، مهما كد واجتهد في عمله.

ـ وماذا يحدث اذن عندما يريد الزواج، وتأسيس بيت خاص به؟

ـ لا يحدث اي شيء يذكر، سوى ان والده يخصص له ولعروسه غرفة أو اكثر... حسب كبر البيت أو صغره.

ـ يا للاقطاعية والتسلط!

ـ الغت الحرب عندنا لا بأس به من العادات والتقاليد القديمة، وذلك في معظم المدن والقرى الكبيرة. اما الحياة في المناطق الريفية البعيدة والمنعزلة، وبخاصة في القرى الجبلية النائية، فلا تزال كما كانت منذ قرون عدة. وعلى الرغم من نفوذ جدك الكونت والمحاولات الكثيرة التي قام بها، فقد استدعي والدك الى الجندية خلال الشهر الثاني لنشوب الحرب وكان آنذاك

في العشرين من عمره. وفي الليلة التي سبقت التحاقه بفرقته، ابلغه ابوه انه اعد له كافة الترتيبات اللازمة لزواجه من فتاة لم يشاهدها في حياته الا مرة أو مرتين فقط. وبما أن وقته كان ضيقاً للغاية، فقد قرر عدم الاعتراض على كلام والده وتأجيل البحث في الموضوع حتى عودته الى البيت، في اول اجازة يمنحها له الجيش.

ـ وجدتي؟ الم تكن قادرة على التدخل والاعتراض؟

ـ لم يتحدث والدك عنها سوى مرة واحدة، وذلك عندما تمنى تسميتك روزاليا... تيمناً بها. ولكنني اذكر جملة لعمتك كاترينا، قالت فيها ان جدتك توفيت عندما كانت هي ووالدك في سن المراهقة.

ـ اكملي، اكملي، يا امي! اخبريني بربك كيف تمكن ابي من الهرب!

تخلت السيدة روسيني عن جديتها، التي لم تفارقها منذ بداية الحديث، وضحكت بصوت عال قائلة:

ـ من اغرب المفارقات انه تمكن من الهرب، كما تقولين، عندما وقع في الأسر قبل بضعة ايام من موعد اجازته الأولى. وقد احضر الى بريطانيا، وأرسل الى معسكر لا يبعد الا بضعة كيلومترات عن المكان الذي كنت اعيش فيه.

ـ هل اسر ابي حقاً وسجن وعذب؟

ابتسمت امها وقالت:

ـ لا، يا حبيبتي! فالسلطات العسكرية هنا كانت تعامل الأسرى الايطاليين بكل انسانية وتساهل، وتسمح لهم بالخروج يومياً من معسكراتهم للعمل في حقول ومزارع قريبة. وكنت انا حينئذ اعمل في المزرعة ذاتها التي ارسل اليها والدك، فحدث اللقاء الذي غير مجرى حياتنا.

ـ يا له من لقاء بعيد عن الرومانسية!

ابتسمت الأم ونظرت الى ابنتها بعينين حالمتين، ثم قالت:

ـ كم انت مخطئة يا حبيبتي! على اي حال، فأنا لا انوي الاسترسال في هذا الموضوع... وكل ما سأقوله لك اننا احببنا بعضنا وتزوجنا فور انتهاء الحرب. والآن، يا روزاليا، ما رأيك في اعداد ابريق آخر من قهوتك الطازجة اللذيذة؟ لقد جف حلقي ولساني من كثرة الكلام.

ـ الآن! ولكني اريد معرفة رد فعل جدي . . . وعما حدث بالنسبة للفتاة، التي كان يفترض بأبي ان يتزوجها. هل . . .
ـ سأخبرك ذلك في وقت لاحق، يا بنيتي! اني ارفض الاستمرار في سرد هذه القصة، ما لم تحضري لي بعض القهوة.
هبت روزالبا واقفة، وقالت بلهجة مرحة تحمل شيئاً من الجدية:
ـ حقاً، يا اماه! هل تعرفين انك قادرة احياناً على ازعاج الآخرين بطريقة ذكية . . . وخبيثة؟
ارتاحت الأم قليلاً بعد ذهاب ابنتها الى المطبخ. ففتح الجروح القديمة مسألة مرهقة للأفكار والأعصاب. لم تكن بحاجة الى القهوة، بل الى فترة تأمل وراحة. ارادت تقوية القلب الذي كاد ينهار فجأة امام استعادة ذكريات رجل شاطرته حباً عظيماً، كان عشية مماته اقوى وأعمق مما كان عليه يوم زواجهما. ولأنها لا تريد في الحياة شيئاً اكثر من تحقيق سعادة عائلة لابنتها، فقد جاء رد فعلها عنيفاً على فكرة قيام روزالبا بزيارة قلعة الينابيع . . التي عاش فيها زوجها السنوات العشرين الأولى من حياته، والتي لم يعرفا بين جدرانها وفي حقولها سوى الألم والعذاب والتعاسة.
ارتجف جسمها فجأة عندما تذكرت ما قالته يوماً لزوجها، بعد المصاعب والمصائب المتعددة والمتلاحقة التي تعرضا لها منذ قراره اختيار بريطانيا موطناً دائماً له:
ـ الى متى سنظل هكذا، يا انجيلو، قبل ان تشعر بالندم لزواجك مني؟ الى اي مدى ستقبل بهذا العذاب قبل ان تتمنى العودة الى موطنك الأصلي . . . الى بيتك الرائع تلك القلعة التاريخية التي تتوج قمة اعلى جبل في صقلية؟
ضمها زوجها الحبيب بين ذراعيه، وأجابها برقة وحنان:
ـ لم تكن قلعة الينابيع ابداً موطني وبيتي، بل مسرحاً كبيراً لوالدي يكتب نصوص رواياته ويحدد ادوارها حسب امزجته المتقلبة ومشاعره المتضاربة. موطني هنا وبيتي هنا، حيث انا دون سواي النجم الأول والأخير لكافة المسرحيات والتمثيليات، وجمهوري العاشق المحب مؤلف من اعز شخصين على قلبي . . . انت وروزالبا!
عادت ابنتها مع القهوة التي تفوح منها رائحة طيبة ولذيذة، وصبت لها

فنجاناً كبيراً . . . ثم جلست على الأرض واتكأت على ركبتها قائلة بلهفة واضحة:
ـ والآن اكملي. يا امي، فأنا احترق شوقاً لمعرفة المزيد من هذه التفاصيل.
ـ لم يعد هناك الكثير يا عزيزتي. فكل ما في الأمر ان والدك كتب الى جدك يبلغه بأمر زواجه وقراره البقاء في بريطانيا. استشاط غضباً وأرسل عمتك كاترينا وزوجها الى هنا، في محاولة يائسة لاقناع والدك بالعودة. وعندما فضلا هما ايضاً فقر الحرية على ثراء العبودية، واختارا البقاء هنا بدلاً من العودة الى صقلية، قرر جدك التنكر لولديه وحرمانهما من كل شيء . . . بما في ذلك امتعتهما وثيابهما التي تركاها في القلعة.
تعذبنا كثيراً لبضع سنوات، ولم نتمكن من جني القليل من الأرباح، الا بعد مرور فترة طويلة. وعندما احتفلنا بالذكرى العاشرة لزواجنا، ووجدنا ان الفرن ومعمل الحلويات يحققان دخلاً جيداً وثابتاً، قررنا التحول من زوجين كادحين الى عائلة صغيرة قادرة على مواجهة تحديات الحياة ومصاعبها.
صبت الأم لنفسها فنجاناً ثانياً من القهوة، ومضت الى القول:
ـ فوجئت عمتك كاترينا قبل حوالى اربع سنوات باستلام رسالة من جدك، يستفسر فيها عما اذا لديه اي احفاد ويتمنى قيامهم بزيارته. ومع انه لم يوجه اي دعوة مماثلة لأي من ولديه في تلك الرسالة التي صاغها بعبارات حزينة، فقد شعرت عمتك بالأسى والمرارة وأمضت بضعة اشهر في حالة يرثى لها من البكاء والعويل وطلب الغفران . . . لأنها اهملت والدها العجوز. والغريب في الأمر ان اباك لم يتأثر اطلاقاً بتلك الرسالة، ورفض السماح لك بزيارة جدك. لم يكن قراره ذاك نابعاً من حقد أو كراهية، بل من عدم ثقة بدوافع جدك وأهدافه. هذه هي القصة بكاملها، ايتها الحبيبة الغالية.
ـ اعتقد ان الجد روسيني شخص مقيت ومثير للاشمئزاز! سأبلغ ابريل بأن عليها السفر وحدها، لأن التفاصيل التي سمعتها الآن محت من نفسي اي رغبة ضئيلة كنت سأشعر بها تجاه الزيارة المحتملة.
ـ حسناً تفعلين، يا عزيزتي، لأن جدك يعد بالتأكيد خطة لعقد قرانك

على احد ابناء العائلات الثرية هناك. الأفضل لك ان تبقي هنا وتتزوجي شاباً بريطانياً هادئاً، لا . . .

اختفت الابتسامة الحقيقة من عيني الأم وشفتيها، عندما قفزت روزالبا من مكانها وقاطعتها بانفعال قائلة قبل خروجها:

ـ لن اتزوج ابداً، يا امي. وهذا قرار نهائي لا رجوع عنه.

صعقت امها لدى سماعها هذا الكلام الخطير، الذي كشف النقاب عن امور بالغة الأهمية، وقالت مناجية روح زوجها الغائب:

ـ كم كنا متطرفين ومجنونين في انانيتنا، يا انجيلو! انظر الى ما فعلت بها حمايتنا العمياء لها، فهي لا تزال حتى الآن سمكة صغيرة لا تعرف العيش الا في هذه البركة الصغيرة. ساعدني على اخراجها الى بحر الحياة! ساعدني، ارجوك!

٢ـ لا ترسلي النعجة الى الذئب!

انتظرت انيتا روسيتي انتهاء ابنتها من تناول فطورها، قبل أن تقول لها بصوت رصين هادىء:

ـ أعتقد. . . أعتقد أنني كنت متسرعة جداً في ادانة رحلتك الى صقلية.

نظرت روزالبا الى أمها باستغراب شديد وهمّت بالاعتراض، الاّ ان الوالدة عقدت جبينها وقالت:

ـ اسمعيني جيداً، يا ابنتي! فكرت كثيراً بهذا الموضوع، الى درجة انني امضيت طوال الليل في صراع شديد مع ضميري ووجداني، للتكهن بردّ الفعل النهائي الذي كان سيصدر عن ابيك. . . فيما لو سنحت له الفرصة الكافية لتحليل هذه المشكلة بتعقل وروية. ربما كان عليّ تشجيعه على المصالحة مع والده. . . لأنني بدأت ادرك الآن انه لو لم يكن هناك في قلبه

بعض الحب نحو جدك، لما وجد تلك الصعوبة الفائقة في مساعدته. كان والدك فخوراً وعزيز النفس، ولكن روابط القربى قوية جداً . . . وبخاصة بين الصقليين. ولهذا السبب أشعر أن اباك ووالده كانا سيتصالحان في نهاية الأمر، فيما لو منحا الوقت الكافي لذلك.

ارتبكت روزالبا كثيراً نتيجة هذا الانقلاب المفاجيء في آراء والدتها ومواقفها تجاه موضوع بالغ الخطورة كهذا، ودفعتها الحيرة الشديدة الى الاعتراض بلهجة تجمع بين التردد والانفعال.

قالت لها:

ـ أتصور أنك . . . انك مخطئة جداً، يا أمي. هل نسيت ان صقلية هي أرض الثأر والانتقام، حيث لا يسمح للصراعات بأن تموت وللكراهية بأن تخفّ أو تزول؟ ألا يتوارث الأبناء والأحفاد جميع الاحقاد عن الآباء والاجداد، وكأنها جزء لا يتجزأ من ارث العائلة وشرفها وعزها؟

ـ ولكنها أيضاً أرض روابط الدم، والتضحية تجاه القريب حتى بالحياة والروح. انها الأرض التي يجرح فيها رجلان، غير قريبين عائلياً، معصميهما ليمزجا دماءهما ويقسما على أخوة الدم والاخلاص طوال عمرهما. فكيف تظنين ان شجاراً بين رجل وابنه يمكن ان يظل دون حل او تسوية، وهما من أرض تعتبر فيها نقطة الدم أغلى من بحر صداقة؟

ـ أتصور انك قد تكونين على حق! أما أنا شخصياً، فاعتقد انني لن افهم هذا الشعب اطلاقاً وسأعتبر افراده بعيدين كل البعد عن الحضارة والمدنية والرقي. لا، يا أمي لن أذهب الى صقلية. لننس الموضوع بكامله، فأنا سعيدة جداً هنا ولست مستعدة أبداً لتعكير صفاء حياتي لأجل رجل عجوز مستبد.

على الرغم من احتجاجاتها واعتراضاتها وتوسلاتها المتواصلة لأيام عديدة بعد ذلك الحوار، فقد اكتشفت روزالبا ان أمها مصرة على ذهابها بعناد لم تعرف له مثيلاً من قبل. ولكنها ظلّت تحاول اقناعها بتعديل رأيها، حتى في الساعات الأخيرة التي سبقت موعد السفر. قالت لها، فيما كانت تنتظر وصول ابريل للتوجه الى محطة السكك الحديدية:

ـ لن تتمكني من ادارة الفرن والمعمل بمفردك، يا أمي، واظن . . .

ـ وعدتني عمتك كاترينا بمساعدتي يوماً، وأنت تعرفين ذلك جيداً.

أتت سيدة لشراء بعض الحلويات، فقامت روزالبا لتلبية طلبها. تنهدت السيدة روسيني التي أرهقها الجدل المستمر منذ بضعة أيام، وتضارب الافكار المزعج في رأسها حول ما اذا كان قرارها سليماً وحكيماً ام لا. ولكن وقت التراجع فات، لأنه تمّ ابلاغ الكونت روسيني بأن حفيدتيه ستصلان الى مطار باليرمو خلال الساعات الأربع والعشرين المقبلة . . . وكان رده على البرقية فورياً ويعكس فرحاً عظيماً وسروراً بالغاً. على أي حال، فهي لم تفكر بامكانية الغاء الرحلة الا مرة واحدة . . . وذلك عندما سمعت كاترينا كافة التفاصيل من ابريل، وهرعت اليها قائلة بصوت مرتجف يعبر عن الخوف وتوتر الاعصاب:

ـ انيتا، انيتا! أخبرتني ابريل قبل لحظات ان روزالبا ستذهب معها الى سيتا ديل مونتي، فهل هذا صحيح؟

هزّت السيدة روسيني رأسها إيجاباً، فرمت شقيقة زوجها بيديها عالياً وكأنها أصيبت بالجنون، وقالت لها بلهجة تدل على الهلع الشديد:

ـ لا، لا! يجب الا يحدث ذلك اطلاقاً! لا تسمحي للبريئة بالذهاب، فالأمر بالغ الخطورة.

تجمدت الدماء في عروق انيتا، ولكنها تظاهرت بالضحك وعدم القلق ثم قالت:

ـ ما هذا الهراء، يا كاترينا؟ انهما شابتان في مقتبل العمر ذاهبتان الى صقلية، لقضاء اجازة قصيرة مع جدهما. فما هي تلك الاخطار المحتملة التي قد تتعرضان اليها؟

امسكت كاترينا بذراعها وهزتها بعنف، صارخة:

ـ هل نسيت ان والدي خطب الى اخي انجيلو فتاة من سيتاديل مونتي؟ ماذا تظنين أنه حدث لتلك الفتاة، عندما تزوجك ولم يعد الى صقلية؟ وهل تعتقدين انه اختار المنفى الدائم طوعاً؟ اذا كنت تتصورين ذلك، فأنت مخطئة تماماً. لقد رفض انجيلو زيارة والده، ولو مرة واحدة، لأنه كان متأكداً من أنه سيكون عرضة للقتل منذ لحظة وصوله الى صقلية.

ـ وحتى لو كان ذلك الوضع السخيف واللامنطقي قائماً بالنسبة لانجيلو، فما علاقة الأمر بروزالبا؟

ـ يرث الابناء كل شيء عن الآباء، بما في ذلك الاسم والممتلكات . . .

والديون. وتتوقع عائلة دهابولو بالتالي تصفية جميع الحسابات عن طريق روزالبا، الوريث الوحيد لابيها. أعرف، يا انيتا، انك تعتبرينني امرأة سخيفة تؤمن بوجود الخرافات. ولكن، صدقيني ان كل كلمة أقولها لك هي الحقيقة والواقع. وما يحيّرني في هذا الموضوع بشكل مذهل، هو ان ابي يعرف هذه الأمور اكثر من أي شخص آخر.

سمعت انيتا روسيني صوت ابريل، فاستفاقت من كابوس اليقظة المنهك للفكر وللاعصاب، وقامت لوداع ابنتها. عانقتها روزالبا قائلة:

- الى اللقاء، يا أمي. اعتني بنفسك جيداً، ولا ترهقي جسمك بالعمل الذي لا يكون ضرورياً جداً.

ضمتها الأم الى صدرها بمحبة وحنان، وهي حائرة حتى تلك الآونة فيما اذا كان قرارها حكيماً ام يدل على رعونة وقصر نظر، ثم قالت:

- تمتعي برحلتك، ايتها الحبيبة. أنا أعرف انك مترددة كثيراً في الذهاب، ولكن الاسبوعين سينقضيان بسرعة وقبل ان تشعري بهما.

وعندما انطلقت سيارة الاجرة بالشابتين نحو المحطة الاولى في رحلتهما، انهارت انيتا روسيني على مقعدها وقالت بصوت متهدج تخنقه العبارات والدموع:

- اعتنِ بها، يا انجيلو، اينما انت يا حبيبي، واعمل على مساعدتها وحمايتها! حاول التفهم ان قراري هذا نابع من حرصي على مستقبلها. لقد بالغنا كثيراً، انت وأنا، في ابقائها تحت أجنحتنا... حتى أننا نسينا في خوفنا عليها ورعايتنا المتطرفة لها حقها في التنفس... والعرق... ورفع الاكمام لاغراق الذراعين في عجين الحياة حتى المرفقين. عليها ان تتعلم كيف تحب، أو تظن على الأقل... انها أحبت!

دخلت روزالبا الى القطار وراء ابنة عمتها، وهي مستعدة لحمايتها والدفاع عنها... وكأنها لبوة تحمي شبلها. وضعت الحقيبتين الصغيرتين على مقعد في المقصورة التي ستجلسان فيها من منتصف الليل حتى الخامسة صباحاً، وهمت بخلع معطفها واخراج المجلتين اللتين ستقرآنهما أثناء الرحلة الطويلة. الاّ انها لم تتمكن من ذلك، لأن شابين وسيمين فتحا الباب وقال أحدهما بلهجة توسل مهذبة:

- تفضلا وانضما الينا في المقصورة المقابلة!

لم تعجبها نظراته التي كانت مركزة باهتمام بالغ على جسم ابريل الرائع، فقالت له بلهجة تجمع بين الحدة والارتباك:

- لا، شكراً، فنحن نفضل البقاء وحدنا!

مدت يدها لاغلاق الباب، ولكنها فوجئت بقريبتها تقول لها:

- لا تكوني سخيفة، يا روزالبا! انها رحلة طويلة ومملة، وأفضل وسيلة لمواجهة الضجر والنعاس هي اجراء احاديث شيقة مع اشخاص آخرين. وبما ان هذين الشابين المهذبين مستعدان للترفيه عنا، فسوف نكون غبيتين جداً اذا رفضنا دعوتهما اللطيفة!

شعرت روزالبا باشمئزاز شديد من تصرف ابريل، ولكن احداً لم ينتبه الى احمرار وجهها وتوتر أعصابها... لأن الشابين السعيدين هبا لنقل الحقيبتين الى مقصورتهما، فيما كانت ابريل تسبقهما اليها وهي تبتسم بزهو وارتياح. وما ان جلستا على المقعد المواجه، حتى بدأت ابريل بالتحدث والثرثرة... فيما ظلت روزالبا صامتة تنظر الى الخارج. ومع أنه ثبت لها بعد قليل وبشكل قاطع أنهما فعلاً شابان مهذبان وحسنا المعشر، الاّ انها لم تقبل بالتراجع عن عزلتها وتقوقعها. سمعت قصصهما عن بعض الحوادث الطريفة جداً التي وقعت معهما كطالبي طب في سنتهما الثالثة، ولكنها لم تضحك أو تبتسم... أوحتى ان تشعرهما بانها موجودة في المقصورة ذاتها.

وصل القطار الى محطة يوستون عند الفجر، فأصر الشابان على حمل حقيبتيها الكبيرتين الثقيلتين وحقيبتي اليد الصغيرتين الى سيارة الأجرة التي ستنقلهما الى محطة فيكتوريا... حيث تستقلان قطاراً آخر الى المطار. وعندما ودعهما طبيبا المستقبل العائدان من اجازتهما في اسكتلندة، قال أحدهما الذي اعجب كثيراً بابريل:

- ما رأيك باللقاء ثانية بعد اسبوعين من الآن؟ اذا قبلتما تأجيل رحلتكما بضع ساعات، فسوف يسعدنا كثيراً ان نريكما معظم المعالم السياحية والترفيهية في لندن.

ابتسمت ابريل بخبث ودهاء، فسارع الشاب الى كتابة رقم هاتفه على ورقة صغيرة ودسها في يدها. شعرت روزالبا بأن من واجبها الاعتراض على هذا التصرف، فقالت لابنة عمتها:

- ابريل، انت تعرفين انه لا يمكننا ذلك! لقد كان هذان السيدان

لطيفين وكريمين جداً معنا، ولكننا . . . ولكننا لا نكاد نعرفهما!

بدت جملة روزاليا الشديدة التحفظ وكأنها آتية من عصور ماضية واجيال قديمة. ضحكت ابريل ومعها احد الشابين بصوت عال، فأحست ابنة خالها البريئة بخجل عميق وارتباك شديد. الأ أن الشاب الآخر انبهما بهدوء وبجدية، قائلاً:

- لا تضحكا على العفة والاحتشام، أو تستخفا بهما. فنحن بحاجة ماسة اليهما في هذه الأيام، التي لم تعد تعرفهما الا نادراً. هل أصبحت الاعراف حقاً تقضي بأن ترمي الفتاة نفسها في احضان أول رجل تلتقي به؟ اذا كان الامر هكذا، فتباً لهذه الحضارة الزائفة ولهذه المدنية الزائلة!

رمت روزاليا نفسها داخل السيارة، وهي متضايقة جداً من نفسها بسبب الاحمرار الشديد الذي ظهر على وجنتيها. أحست بالانفعال المؤلم لاصرارها على التصرف مع أي انسان غريب كأنه ذئب مفترس، مع ان الناس كلهم ليسوا ذئاباً. الحذر ضروري والحشمة واجب، ولكن الانفتاح على البشر برصانة ليس جريمة لا تغتفر.

وصلت السيارة الى محطة فيكتوريا، فتولت ابريل دفة القيادة بشجاعة وثقة أعجبت بهما روزاليا وحسدتها عليهما. أعطت السائق أجرته، دون أن تنسى الزيادة المفروضة في ساعات الليل وعلى الحقائب. ثم طلبت من حمال نقل أمتعتهما الى القطار، وبدأت تشقّ طريقها بيسر وسهولة عبر تلك المحطة الضخمة التي تعج بالقاعات والأروقة والردهات . . . دون الاستعانة بالاشارات المتعددة التي ترشد المسافرين الى اماكنهم ومراكزهم.

تضايقت روزاليا من الصخب والضجيج ومئات الاشخاص الذين يتراكضون من هنا وهناك، وتمنت من صميم قلبها لو انها لم تترك هدوء بيتها وسكينته. ومما زاد من انقباضها ورغبتها في العودة، تلك المواقف المحيرة والمستهجنة لابنة عمتها. فقد بدا لها بوضوح تام، ومنذ بدء رحلتهما، ان ابريل منزعجة من سذاجة قريبتها . . . وأنها ليست بحاجة اطلاقاً الى من يحميها أو يرد عنها الاخطار المزعومة. حاولت روزاليا جاهدة التكهن بالسبب الحقيقي الذي حمل ابريل على اقناعها بمرافقتها، ولكنها لم تصل الى اي نتيجة مرجوة.

كانت تتبعها كظلها ودون الاهتمام بالتطلع أمامها، فلم تشعر بالعقبة

التي اعترضت طريقها الأ عندما احست بالأرض تتحرك تحت قدميها. صرخت بذعر وهلع، وقفزت الى الوراء بحيث كادت تصطدم بسيل من الناس الذين يتدفقون بسرعة نحو السلالم الكهربائية المتحركة. وقفت جانباً بخوف وذهول بالغين تراقب ابريل وهي تبتعد عنها، وتكاد تختفي عن ناظريها. وعلى الرغم من خطر بقائها وحيدة لبعض الوقت، الا انها لم تجرؤ على الاقتراب من تلك السلالم المرعبة . . . وتمنت لو أن ابنة عمتها تتطلّع الى الوراء لتنقذها من هذه الورطة المخجلة.

استدارت نحوها ابريل في اللحظة التي وصلت فيها الى أسفل السلم، فلاحظت روزاليا الغضب الشديد في عينيها والعصبية الواضحة في حركات يدها التي كانت تشير اليها بالنزول. ظلت واقفة في مكانها ترتجف خوفاً وخجلاً، وتحاول اتخاذ قرار حول أي من الشرين ستختار . . . السلالم الخطرة المرعبة أو التعرض لسخط قريبتها الذي لا يقل خطراً ورعباً! وعندما اقنعت نفسها بأن ما من قوة سترغمها على الاقتراب من هذه السلالم، التي تبدو وكأنها تحمل الناس الى حتفهم، وصلت ابريل من الجانب الآخر وهي تنظر اليها بازدراء واحتقار هائلين. وان لم تكن روزاليا قد شعرت قبلاً بأن قريبتها تعتبرها عبئاً ثقيلاً ومزعجاً وغير مرغوب فيه، فقد تأكد لها ذلك بمجرد النظر الى عينيها الغاضبتين وسماع نبرتها القوية القاسية. قالت لها بحدة وعصبية:

- هل من الضروري ان تخجليني امام هؤلاء الناس اجمعين، بوقوفك هكذا كفتاة ريفية جاهلة؟ هيا! هيا بنا حالاً!

لم تدرك روزاليا نوايا ابريل تجاهها الأ بعد فوات الأوان، فقد أمسكت بمرفقها ودفعتها بقوة نحو السلالم وهي تقول:

- يا لك من فأرة صغيرة ضعيفة! انظري أمامك ووراءك لتشاهدي بنفسك مدى سلامة هذه السلالم وبساطتها! هل تشاهدين تلك الطفلة الصغيرة التي تنزل وحدها، وبأسرع من معظم الكبار، فيما أنت متعلقة بذراعي وكأنك تساقين الى الجلاد؟

سيطرت روزاليا على أعصابها قليلاً، بمجرد وصولها الى أسفل السلم ووقوفها على أرض صلبة، ثم تطلّعت نحو ابريل محمرة الخدين خجلاً وقالت لها بصوت مرتجف:

- أنا آسفة جداً. لا شك في انك تحتقرينني الآن كثيراً، بسبب سخفي وغبائي!

اجلستها ابريل على مقعد قريب، وقالت لها:

- ارتاحي قليلاً هنا، فقد كنت على وشك الانهيار. اعذريني على قساوتي وكلماتي الجارحة، ولكنني شعرت بانفعال شديد عندما رأيتك تجعلين من نفسك هدفاً لسخرية الناس وتندرهم. على أي حال، لا يجوز تحميلك مسؤولية هذه التصرفات. فمعظم اللوم يقع على عاتق والديك، اللذين وضعاك في مدرسة للراهبات ثم أصرّا على أن تعملي معهما في محل الحلويات. . . عوضا عن رميك في بحر الحياة لتختلطي مع من هم في سنك ويفكرون مثلك. ربما كان خالي مخلصاً جداً في تبنيه عادات البريطانيين وتقاليدهم وطرق عيشهم، الا انه ظل في أسلوب معاملته لك صقلياً مئة في المئة. أنت بالتأكيد طائر يحلق مختلفاً جداً عن بقية سربه، وعجوز في جسم شابة. سأبذل ما بوسعي من جهود للعمل على ترميم الاضرار التي ألحقها بك والداك من غير قصد، ولكنني لن أتمكن من النجاح الا اذا قررت أنت التعاون معي الى اقصى درجة.

ثم ابتسمت وختمت محاضرتها بالقول:

- لدينا اسبوعان فقط، فتخلي عن عقلية العشرينات او الثلاثينات من هذا القرن واعملي على اللحاق بسربك دونما اي تردد أو تأخير!

أرادت روزاليا في بداية الأمر التصدّي لابنة عمتها والدفاع عن والديها، ولكنها اختارت الصمت كعادتها. . . لتجمع شتات أفكارها وتحاول تحليل آراء قريبتها. وعندما ظلت على صمتها المطبق لدى وصولها الى المطار وصعودهما من ثم الى الطائرة المتوجهة الى باليرمو، تذكرت ابريل لقاء عائلياً جرى قبل بضع سنوات والحديث القصير الذي أجرته مع امها على اثره مباشرة. قالت لها آنذاك، منتقدة ابنة خالها:

- ليست طبيعية اطلاقاً تلك الطريقة التي تعزل فيها روزاليا نفسها في احدى الزوايا، وتجلس ساعات دون التفوه بكلمة واحدة! وحتى عندما يتحدث اليها أحد، فانها لا تجيب الا بجمل قصيرة مقتضبة . . . أو بكلمة واحدة فقط. وعليه، فليس من الغرابة أبداً أن يتجاهلها الآخرون. أنا شخصياً أنسى في كثير من الأحيان أنها موجودة، أو انها ليست تمثالاً مثبتاً في

هذه الزاوية او تلك!

عاتبتها والدتها حينئذ بلهجة جافة، متمنية لو أنها تتمكن من التصرف مثل ابنة خالها. وعندما لاحظت الأم ان ابنتها تتحدث باهتمام جدي ومخلص، قالت لها بهدوء وحنان:

- انهما من طينتين مختلفتين، يا عزيزتي، على الرغم من روابط القربى القوية التي تجمع بينكما. انت تحبين ان تكوني محور الاهتمام والانتباه، في حين ان روزاليا تحب العزلة والانفراد. ولكنها شابة سعيدة وصمتها نابع من سكينة الروح، التي لا ينعم بها الا ذوو الضمائر المرتاحة والصفات الحميدة. ادرسي شخصيتها جيداً، فتجدين انها تبدي اهتماماً ايجابياً وكلياً بكل ما يقال لها وحولها. قد تكون بخيلة في كلامها، الا انها بالتأكيد كريمة جداً في ابتساماتها الرقيقة العذبة. صدقيني، ابنتي القلقة الصغيرة، ان روزاليا تستحق الاعجاب والتقدير وليس الحزن او الشفقة. . . لأنها ولدت ولا تزال تعيش في جو من الحنان والطمأنينة يضحي الكثيرون بثروات طائلة للحصول على مثله أو بعضه.

انطلقت الطائرة النفاثة بسرعة على مدرج المطار وأقلعت بقوة نحو الفضاء الفسيح، فلاحظت ابريل ان روزاليا اغمضت عينيها وقطبت حاجبيها وامسكت بذراعي مقعدها بعصبية وتوتر واضحين. سألتها عما اذا كانت بخير، فاكتفت بهز رأسها ايجاباً. . . لأنها صممت على مواجهة الخوف بشجاعة وعزيمة. لن تكون جبانة بعد الآن! قالت لنفسها معاتبة مؤنبة:

- اذا اردت التخلي من الآن وصاعداً عن حياة الآلام الوهمية، فما عليك الا ايجاد الشجاعة الكافية لامساك كل ثور يهاجمك بقرنيه ورميه أرضاً. . . عوضاً عن الهرب منه والاختباء في ملاجىء بعيدة ومحصنة!

فتحت روزاليا فمها لتقول لابنة عمتها انها كانت على صواب في كل كلمة قالتها لها في محطة فكتوريا، الا أنها سمعت في تلك الأونة قائد الطائرة يقول للمسافرين بلهجة شاعرية عبر مكبرات الصوت الصغيرة:

- أيها السيدات والسادة، نحن الآن على أهبة الوصول الى وجهتنا. اذا نظرتم الى الخارج، ستشاهدون باليرمو. . . المدينة الجميلة التي تنتشر كمجموعة من اللآلىء الثمينة بين أصداف من الجبال العالية.

باليرموا هل ستصبح هي باختيارها أو رغماً عنها، مثل تلك المدينة الساحرة، حبيسة الأصداف الذهبية؟

٣- الرجل الغامض

اقتربت ابريل من أحد الضباط المسؤولين عن جوازات السفر، وهي تحمل جوازها بيد وحقيبتها الصغيرة باليد الثانية. وفيما راح الرجل يقارن بين وجه ابريل وصورتها للتثبت من صحة الوثيقة التي تحملها، ويتأكد بعد ذلك من صلاحية الجواز لفترة غير قصيرة، ومن ثم يطلع على احدى صفحاته الأخيرة اشارة الدخول، احست روزاليا بأن الدماء تجمدت في عروقها خوفاً من نظراته القاسية وملامحه الشرسة.

وعندما جاء دورها، اعطته جوازها بيد مرتجفة وأعصاب متوترة، ولما فتح الضابط جوازها وقارن بين الصورة ووجه صاحبتها، بدأ يتفحص كافة التفاصيل المذكورة على الجواز بدقة وعناية بالغين. وما ان اشار الضابط الى شخص وراءها، دونما اي ايضاح أو استفسار، حتى احست روزاليا

بتسارع ضربات قلبها وازدياد ارتعاش جسمها. وفيما أخذ الرجل الأخر جوازها وراح يدرسه بهدوء وروية، غير آبه بتململ المسافرين الآخرين الذين يقفون صفاً طويلاً وراء روزاليا، شعرت حفيدة الكونت روسيني بالعرق يتصبب من جبينها.

أنبت نفسها على هذا التصرف اللامنطقي، لانه ليس لديها أي شيء تخافه ولا داعي بالتالي الى مثل هذا التوتر. ومع ذلك فقد أرعبها الرجل الاسمر الطويل القامة والمفتول العضلات الذي لا يرتدي أي زي رسمي. قد لا يكون أحد المسؤولين في المطار، ولكنه بالتأكيد رجل ذو نفوذ قوي. ماذا أوحى لها بذلك؟ هل هي الطريقة التي يحرك بها رأسه، وتدل على هيبة وقوة شخصية، أم هي تلك النظرات الحادة التي تنطلق كالسهام القاتلة من عينيه الكبيرتين السوداوين؟ أنهى الرجل تفحصه لجواز سفرها وأعطاها اياه، قائلاً لها بلهجة مهذبة أذهلتها:

ـ شكراً. آمل ان تتمتعي بوقتك في جزيرتنا، يا آنسة روسيني.

أنذرتها حاستها السادسة بأن الطريقة التي استخدمها هذا الرجل في ذكر اسمها، وكأنه يداعبه بلسانه ويتلذذ بطعمه، تبدو كأسلوب الفهد الذي يهنىء نفسه على نجاح صيده ولكنه مستعد للانتظار بعض الوقت قبل الانقضاض على فريسته لالتهامها. وأشعرتها غريزتها على الفور بوجود روح من العداء تجاهها، وراء تلك اللهجة المهذبة والأسلوب الهادىء. ولأن حيرتها كانت شديدة وذهولها أشد واقوى، فانها لم تتمكّن من التطلع ثانية الى وجهه . . . واكتفت بتأمل الابزيم الذي يربط به حزامه الجلدي، والذي يدل بوضوح تام على شراسة هذا الرجل وعنفه. فقد لاحظت روزاليا انه حفرت بشكل نافر على هذا الابزيم المصنوع من الذهب الخالص، صورة وحش مجهول يتهيأ للانقضاض على افعى مكومة على نفسها وتستعد بدورها لمهاجمته وابتلاعه. وضعت الجواز في حقيبة يدها، وقالت للرجل متلعثمة:

ـ شكراً، ايها السيد، و. . . وداعاً.

احنى الرجل رأسه بشيء من الاستهتار، وقال لها مشدداً بنعومة على الشق الأول من جملته المقتضبة:

ـ الى اللقاء، يا آنسة.

ما ان اقتربت روزاليا من ابنة عمتها، التي كانت تراقب الموقف عن كثب، حتى سارعت ابريل الى توجيه سيل من الأسئلة.

ـ من هو هذا الرجل؟ ماذا أراد منك؟ وماذا قال لك؟

ـ لا شيء يذكر. تمنى لي اقامة سعيدة في هذه الجزيرة.

ـ هل أمضى كل هذا الوقت ليقول لك ذلك فقط؟

ـ يبدو أنه كان مهتماً جداً بجواز سفري.

ـ أوه! لم يكن الكتاب اذن هو الذي جذب انتباهه، بل العنوان. فاسم روسيني له وزنه ونفوذه، حتى هنا في باليرمو! ويذكرني هذا الاسم في الوقت ذاته، بأن علينا الاسراع في انهاء معاملاتنا وأخذ حقائبنا. فمن المؤكد ان جدنا ينتظرنا في سيارته قرب قاعة الخروج، ومن واجبنا ألاّ نبقيه هناك أكثر مما هو ضروري.

خرجت الحفيدتان من القاعة بعد دقائق معدودة، لتواجها شمساً ساطعة قوية أربكت روزاليا في اللحظات الاولى، وحرمتها من التركيز على الشخص الذي لوحت له ابريل بيدها ثم هرعت نحوه لمعانقته وتقبيله. وعندما تأقلمت عيناها مع الضوء المتوهج واتضحت لها الرؤية، شاهدت روزاليا رجلاً متقدماً في السن يقف أمامها بكامل اناقته وقامته الطويلة الرشيقة. . . يرحب بها باسماً وفاتحاً ذراعيه. تسمرت في مكانها وهي تشعر بمزيج من الازدراء والاعجاب، تجاه هذا الرجل الوسيم الذي يشبه والدها الحبيب الى درجة كبيرة. . . ولا يشبهه اطلاقاً في الوقت ذاته. فالطول والرشاقة هما نفسهما، وكذلك الرأس والجبين والعينان العسليتان، الاّ ان النظرات مختلفة تماماً. ففي حين أن عيني والدها كانتا تشعان بالحنان والرقة والمحبة، فان عيني جدها الكونت قاسيتان باردتان كالفولاذ. ولم تنتبه روزاليا الى ان الفم هو ابرز نقاط عدم التشابه بين الوالد وابنه، الاّ عندما وجه اليها جدها ابتسامة عريضة فيما كانت ابريل لا تزال بين ذراعيه. فقد لاحظت ان فمه يتسع ببرودة جافة لا تعرف الدفء أو المحبة، وكأنه ينفذ أمراً بالابتسام. ولما تركته ابريل لتدخل بسعادة فائقة الى السيارة الكبيرة الفخمة، اقترب منها بهدوء وقال:

ـ هذه هي اذن الحفيدة روزاليا! أهلاً بك الى صقلية، أيتها الحبيبة.

لم تتحرك من مكانها أو تقل شيئاً رداً على ترحيبه، فشجعها على ذلك

برقة قائلاً:

ـ ما بالك، يا ذات الوجه الملائكي؟ ألن تمنحي جدك قبلة اللقاء؟

اقتربت منه بتردد وخطى بطيئة، وهي تحاول عدم الكشف عن مشاعر الاشمئزاز تجاه هذا الطاغية الذي عرّض والديها الى عذاب مرير. وعندما طبع قبلة خفيفة على خدها، لم تدرك السبب الذي جعلها تتذكر فجأة ذلك الابزيم الذهبي البربري وصورة تلك الأفعى السامة المتحفزة للهجوم.

لاحظ جدّها الارهاق الذي ظهر فجأة وبجلاء على وجهها، بمجرد جلوسها على المقعد الخلفي الوثير لسيارته الانيقة، فلم يحاول ارغامها على التحدّث معه أو اليه. وما ان انطلقت السيارة نحو مدينة باليرمو القديمة، حتى قال الرجل العجوز لحفيدتيه:

ـ بما أنكما متعبتان جداً بسبب رحلتكما الطويلة والمنهكة، فقد أعددت الترتيبات اللازمة لكي تمضي هذه الليلة في العاصمة. سوف تساعدكما الراحة التي ستنعمان بها بعد قليل، على التمتع غداً برحلتكما الى سينا ديل مونتي.

لم تمض سوى دقائق معدودة حتى دخلت سيارة الكونت روسيني الشوارع الضيقة لمدينة باليرمو الساحرة، التي لا تزال تزيّن بعض ضواحيها واحيائها الداخلية آثار يونانية ورومانية وعربية واسبانية من مسارح وقصور ودور عبادة، تتحدّث بوضوح عن الحضارات المختلفة التي عرفتها هذه الجزيرة. وعندما وصلت بهم السيارة الى وسط المدينة، الذي كان كقفير نحل يكاد يختنق بالسيارات من مختلف الاحجام والانواع والعربات التي تجرها الخيول والامواج البشرية الهائلة التي تضيق بها الارصفة، أحست روزاليا بأنها ستفقد حاسة سمعها. أخذت السيارة تزحف ببطء شديد بسبب الازدحام الهائل، فيما كان معظم السائقين يطلقون العنان لأبواق سياراتهم ويتبادلون الشتائم والاهانات الفظة مع المشاة ومع بعضهم بعضاً.

تنفست روزاليا الصعداء بمجرد الابتعاد عن جو الصخب والضجيج، ودخول سيارة جدها الى ساحة صغيرة ثم توقفها أمام مبنى رائع الجمال مؤلف من أربع طوابق. تأملت الطابق الأول باعجاب شديد، وبخاصة التماثيل الأربعة التي تمثل فصول السنة. قال لها جدها، فيما كان سائقه

يفتح لهم البوابة الخارجية:

ـ كان هذا القصر بكامله في يوم من الايام ملكاً لعائلة روسيني، ولكنني لم أعد أملك منه الآن سوى الطابق الاول والحديقة المحيطة به من ثلاث جهات. أما الطوابق الثلاثة الأخرى، فقد حولتها الى ست شقق سكنية وأعددت لها مدخلاً خاصاً بها عبر الجهة الخلفية للحديقة، ثم بعتها لمالكيها الحاليين.

دخل الثلاثة الى القاعة الفسيحة التي تدل بوضوح على ثراء بالغ، فيما كان المرافق القوي يتبعهم حاملاً حقائب الحفيدتين الشابتين. هرعت لاستقبالهم امرأة في منتصف العمر، وقالت بلهفة صادقة بمجرد رؤيتها روزاليا المتعبة:

ـ آوه! الصغيرة المسكينة!

أشار الكونت الى الامرأة قائلاً:

ـ هذه هي ريتا، مديرة المنزل، التي تعمل في خدمتي منذ سنوات عديدة. سترشدكما الآن الى غرفتيكما، لأنكما بالتأكيد مرهقتان جداً. ارجو الاّ تترددا اطلاقاً في مطالبتها بأي شيء قد تحتاجان اليه، ولا تجدانه مؤمناً لكما.

احست روزاليا لدى دخولها غرفتها ومشاهدتها السرير الكبير المريح، بأنها لا تريد شيئاً سوى النوم. فهي لم تقم في حياتها برحلة طويلة منهكة كهذه، ولم تعرف يوماً مثل هذه الاثارة السلبية المزعجة التي نجمت عن مشاعر مؤلمة مرهقة كالغضب والخجل والخوف. ألقت بنفسها على ذلك السرير الذي كان يجذبها اليه بقوة عظيمة، قائلة لمديرة المنزل ذات الابتسامة الحارة كطقس باليرمو:

ـ لست بحاجة الى أي شيء الآن سوى هذا السرير، الذي لا أنوي التحرك منه قبل اثنتي عشرة ساعة على أقل تقدير. شكراً لك، يا ريتا.

احنت مديرة المنزل اللطيفة رأسها تأدباً واحتراماً، وخرجت من الغرفة دون تأخير أو تردّد. خلعت روزاليا ثيابها على الفور وارتدت قميص النوم، ثم تسللت كقطة صغيرة تحت الغطاء الحريري الناعم. وما ان شعرت بالنعاس الشديد يغمض عينيها، حتى قالت لنفسها بصوت هادىء:

ـ من الواضح ان جدي يعتقد بأن أسرع الطرق وأقصرها الى قلب

المرأة، هو تأمين الراحة والرفاهية لها. يجب أن أكون حذرة جداً في مواجهة هذا الترف، الذي لم أكن لأحلم به من قبل، وأن اعتبره امراً عرضياً سيزول خلال بضعة أيام... والاّ فانني سأتعلق به وأصبح أسيرته وضحيته!

نامت روزاليا نصف المدة التي وعدت نفسها بها، فاستيقظت في السادسة والنصف مساء وهي تشعر بالراحة التامة... ولكن بشيء من التململ وعدم الاستقرار. وعندما أحست بأنّ المدينة تدعوها لاستكشافها، حثها ذلك الشعور العميق بعزة النفس الموروث عن والدها بتلبية الدعوة دون تمنّع أو وجل. فهذه هي الأرض التي تضم جذور عائلة والدها منذ مئات السنين، وهي الأرض التي بدأت تشعر نحوها فعلاً بتعاطف قوي. ولو أنها توقفت قليلاً لتحليل مشاعرها تجاه هذه الجزيرة، لتبين لها انها مماثلة لمشاعر منفي عاد أخيراً الى موطنه بعد غياب طويل.

استحمت وارتدت ثيابها، ثم وضعت كافة المبلغ الذي تحمله بالعملة الايطالية في حقيبة بيضاء صغيرة بهدف شراء هدية جميلة لوالدتها، وتسللت بهدوء الى الغرفة المحاذية التي خصصت لابنة عمتها. كانت تأمل في ايجاد ابريل مستيقظة وراغبة في مرافقتها خلال جولتها القصيرة المرتقبة، لكنها فوجئت بأن قريبتها لا تزال تغط في نوم عميق. ترددت قليلاً، الاّ ان نداء المدينة التي بدأت تستفيق من غفوة ما بعد الظهر وتستعد لسهرتها الطويلة، كان قوياً جداً ويصعب رفضه.

خرجت الى الحديقة ومنها الى الطريق، وهي تعلم انه كان عليها ابلاغ ريتا او جدها نفسه عن عزمها على القيام بهذه الجولة القصيرة. ولكنها أقنعت عقلها، الذي بدأ يحذرها من مغبة الضياع في هذه المدينة الغريبة، بأنها لن تضل طريقها اطلاقاً طالما بقيت قريبة من تلك الساحة الصغيرة.

سارت روزاليا لمدة خمس دقائق فقط، فوصلت الى سوق شعبي يعج بالحركة والنشاط. وقفت في احدى الزوايا، وراحت تتأمل اوجه المارة وعربات الخضار والفاكهة التي تملأ الارصفة والشارع الضيق، المخصص بأكمله لعمليات البيع والشراء. أعجبتها تفاحة حمراء كبيرة، فاقتربت من البائع المسن ورفعت اصبعها قائلة:

- واحدة!

اعطاها الرجل اكبر تفاحاته وهو يبتسم لها، فسألته عن ثمنها. وعندما لم يفهم ماذا قالت له، تذكرت بعض الكلمات الايطالية التي علمتها اياها ابنة عمتها وحاولت استخدامها... الاّ انها لم تنجح في مهمتها الصعبة. فتحت حقيبتها امامه واشارت الى الكمية الكبيرة من الاوراق النقدية الايطالية، داعية اياه الى أخذ ما يراه مناسباً كثمن لتلك التفاحة.

لبى الرجل دعوتها بسرور، ولاحظت انه لم يأخذ الاّ المبلغ الذي تصورته ثمناً معقولاً. سارت قليلاً داخل ذلك الحشد الكبير من الناس، وغرزت أسنانها البيضاء الصغيرة بقوة في تلك التفاحة الجميلة... لتفاجأ بكمية كبيرة من العصير اللزج ينطلق منها ويغطي انفها وفمها وذقنها. كان الناس يتدافعون حولها من كافة الاتجاهات، فتبين لها أنها لن تتمكن من فتح حقيبتها بالسهولة التي تتوخاها لاخراج منديل تنظف به وجهها. شاهدت زقاقاً مهجوراً في أحد اطراف السوق، فشقت طريقها نحوه بصعوبة شديدة. وعندما وصلت اليه، أسندت ظهرها الى جدار وتنهدت بارتياح ثم بدأت تعبث في حقيبتها بحثاً عن المنديل المطلوب.

كانت متضايقة جداً من الذباب الذي بدأ يحوم حولها، ومنهمكة في البحث عن أي شيء يمكنها استخدامه لتنظيف وجهها، فلم تلاحظ وجود شخص بقربها الاّ عندما غطى ظله عينيها. رفعت رأسها بسرعة، لتجمدت الابتسامة على شفتيها. شاهدت مراهقاً في حوالى السادسة عشرة من عمره يرتدي ثياباً وسخة، وينظر اليها بعينين شريرتين. أدركت روزاليا على الفور ما يخطط له هذا الوغد الصغير، فأغلقت حقيبتها بسرعة وضمتها الى صدرها... في اللحظة ذاتها التي امتدت فيها يداه لسرقتها. وعلى الرغم من مشاهدتها الخطر الواضح في نظراته القاسية والحادة، الاّ أنها صممت على عدم التخلي عن حقيبتها دون مقاومة. حرر الفتى احدى يديه ورفعها عالياً لصفع هذه الغريبة، التي تتصور انها قادرة على الدفاع عن نفسها. نزلت يده على خدها كمطرقة حداد، ولكنها لم تستسلم أو تتراجع عن عزمها على الاحتفاظ بحقيبتها مهما كلّف الأمر... كما أنها لم تصرخ مستنجدة، مع أنها على بعد ثلاثين أو أربعين متراً عن سوق يعج بالناس. رفع الفتى يده مرة أخرى ليضرب بحافتها معصم الشابة العنيدة، فأغلقت فمها بسرعة واغمضت عينيها.

الّا أن معصمها لم يتعرض للضربة القاسية المرتقبة، بل سمعت عوضاً عن ذلك حشرجة في صوت مهاجمها ولاحظت ان يده الأخرى تخلت عن حقيبتها. فتحت عينيها في اللحظة المناسبة لتشاهد قبضة تنهال بلكمة قوية موجعة على ذلك المعتدي، الذي اطلق صرخة ألم عالية وهو يقع أرضاً. ولكنه ما إن لامس الأرض، حتى هب واقفاً بخفة القرود وفرّ مسرعاً نحو الأسواق التجارية.

أحست روزاليا، مع انتهاء محنتها، بأنها لم تعد تقوى على الوقوف بثبات على رجليها. فقد انهارت القوة الخارقة التي منحتها اياها غريزة الدفاع عن النفس، واختفى اللون من وجنتيها وشعرت بأنها تكاد تتقيأ. وعندما تمكنت من رفع رأسها قليلاً لتشكر منقذها، فتحت فمها دهشة واستغراباً ثم قالت بتلعثم واضح:

- اوه...! هذا... هذا أنت!

قال لها الرجل الذي تفحص جواز سفرها في المطار، فيما كانت نظراته الحادّة تؤنبها على غبائها:

- نعم، هذا أنا. ألم تفكري أبداً بأن التجول وحدك في أزقة كهذه، يعرضك للخطر؟ الأشرار كهذا الفتى الذي هاجمك هم أوبئة باليرمو وحشراتها الضارة؛ يظهرون بشكل مفاجىء وصامت كجرذان المجارير بحثاً عن سياح بسطاء يتجولون في أسواق المدينة وشوارعها الضيقة... ويحملون باهمال مغر كميات كبيرة من المال في حقائب يد تسهل سرقتها، ويعرضونها كلها كلّما ارادوا شراء هذا الشيء أو ذاك. الا تشكل مثل هذه التصرفات غير الحكيمة اغراء قوياً لهؤلاء الصبية الاشرار؟ لن أحاول أبداً الدفاع عن صغار المجرمين او تبرير أعمالهم، ولكنني اجد في الوقت ذاته صعوبة في التعاطف مع سذّج وأغبياء مثلك، يفتحون حقائبهم امام باعة الارصفة لأخذ ما يريدون، ويتجولون وحدهم في ازقة كهذه... لا تجرؤ على المرور فيها وحدها أي مواطنة تعيش في الأحياء القريبة.

أدركت روزاليا ان الرجل على حق، مع انه كان بامكانه التحدث معها بلهجة أكثر رقة. أحست ان الملامة كلها تقع عليها، فقالت له بعد تردد:

- أنا آسفة!

تأمل وجهها المضطرب بضع لحظات، قبل ان يصدمها بسؤال لم تكن

تتوقعه اطلاقاً. قال لها، مستفسراً بشيء من الانفعال المادىء:

- هل تحاولين الاستهزاء بي، يا آنسة؟

شهقت باستغراب وقالت له، وهي متضايقة جداً من اتهامه لها ضمناً بقلة التهذيب:

- لا، طبعاً لا!

أمسك الرجل بمرفقها وراح يقطع واياها الشوارع الضيقة والمتداخلة مع بعضها البعض كلعبة المتاهة، الى ان توقف قرب احدى الزوايا وقال لها:

- هل تذكرين هذه المساحة الصغيرة؟

- نعم.

- إذن فلن تجدي أي صعوبة في الوصول الى منزل جدك. الى اللقاء مرة أخرى، يا آنسة روسيني!

اختفى الرجل الغامض عن ناظريها، قبل أن تتمكن من استجماع الشجاعة الكافية لتطرح عليه اسئلة تحرق شفتيها وتزعج بالها. كيف عرف أن الكونت روسيني هو جدها، وكيف علم أنها تقيم قرب هذه الساحة بالذات؟ وأكثر من ذلك كله، أرادت روزاليا ان تستفسر منه عن سبب ملاحقته لها. فمن المؤكد أنه يراقب خطواتها وتحركاتها عن كثب، والّا فكيف عرف بحادثة فتح حقيبتها أمام البائع المسن، وكيف تمكن من انقاذها في زقاق جانبي مهجور!

شعرت روزاليا بارتياح كبير عندما لاحظت أن الصمت لا يزال مخيماً على منزل جدها، وأنها لن تتعرض لأي استجواب قد لا تقوى على تحمله. هرعت الى غرفتها ورمت بنفسها على السرير الكبير، لترتاح من عناء أخطر مشكلة واجهتها في حياتها. وأغرب ما في الأمر انها تجد تأثير ذلك الرجل الغامض على اعصابها، أشد وأدهى من تأثير تلك الحادثة التي كادت تودي بحياتها... أو تلحق بها على الأقل اضراراً جسدية جسيمة.

لا يمكن لتأثيره القوي هذا ان يكون نابعاً من كونه رجلاً أسمر اللون، طويل القامة، وذا وسامة وجاذبية ساحرتين. فقد التقت عدداً قليلاً من أمثاله، ولكن أياً منهم لم يحرك في داخلها مثل هذه المشاعر والتفاعلات القوية. كذلك فان الأمر ليس متعلقاً بعضلاته المفتولة أو شخصيته القوية أو ثقته المطلقة بالنفس. لماذا اذن؟

لا شك في أن الجواب الوحيد على ذلك، يكمن في رجولته الفذة. ليس كل الرجال رجالاً، أما هذا الغريب الذي يعرف على ما يبدو أشياء كثيرة عنها... فهو فنان بارع في التصرف كرجل حقيقي!

٤ ـ انت مرة اخرى!

تناول الجد روسيني وحفيدتاه طعام العشاء في التاسعة والنصف مساء، اي عندما تكون روزاليا عادة على اهبة التوجه الى سريرها. ومع انها لم تكن متعبة اطلاقاً في ذلك الوقت، ولم تأكل اي شيء تقريباً منذ مغادرتها بيتها في الليلة السابقة، الا ان الكمية الكبيرة من المعكرونة التي وضعتها ريتا على صحنها جعلتها تفقد شهيتها وتقول لمديرة المنزل:

ـ تكفيني ملعقة واحدة فقط! شكراً، يا ريتا.

استجابت ريتا لرغبة الضيفة الشابة، وهمت باستبدال الصحن المتلىء. الا ان الجد تدخل فوراً، وقال:

ـ هراء! ريتا خبيرة في اعداد هذه الأنواع من المأكولات الشهية المغذية. هيا! افرغي محتويات هذا الصحن في معدتك الصغيرة الخاوية، فأنت

بحاجة ماسة اليها. لقد سمعت مرة ان البريطانيين لا ياكلون الا القليل، وجسمك النحيل هذا يا صغيرتي، دليل قاطع على ذلك. ان لم ياكل الانسان جيداً في المساء، فانه لن يتمكن من التحدث او الاسترخاء. . . او حتى النوم بطريقة جيدة. على اي حال، ستتحدث بعد الأكل لان فراغ المعدة يشل حاسة السمع.

اخافتها اسلوب جدها الاستبدادي، فبادرت الى تناول طعامها دون اي تعليق أو مناقشة. لم تكن تأكل المعكرونة في بيتها الا نادراً، لان والدها اراد الابتعاد عن كل شيء ايطالي او يذكره بصقلية، لكن دعوات عمتها الى الغداء كانت تتضمن في معظم الأوقات المعكرونة على اختلاف انواعها وأطباقها. وبما انها لم تكن يوماً ضيفة وقحة، فقد اعتادت على تقبل كافة الأطعمة الايطالية المشهورة. . . حتى مع كرهها الشديد لبعضها.

استعانت بارادتها القوية وراحت تلتهم طعامها بشجاعة، وهي تدرك تماماً ان جدها يراقبها كصقر متحفز. الا ان الجد لم يكن وحده الذي يتأمل طريقة اكلها، فقد كانت ابريل تفعل الشيء ذاته. . . ولكن بمرح بريء، تحول بعد قليل الى شفقة.

شعرت روزاليا بالارتياح الى حد ما، عندما بدات ابنة عمتها حديثاً لبقاً وشيقاً مع جدهما بهدف تحويل انتباهه عن حفيدته الثانية. ولاحظت ابريل بأسف ان موافقة قريبتها التامة والفورية على تعليمات جدها لم تنل اعجابه ورضاه، بل جعلته متضايقاً ومتململاً. فالعجوز بطبيعته رجل مقاتل لا يحب المستسلمين والمتخاذلين، بل الذين يعترضون ولو جزئياً على اوامره، ويفسحون له بالتالي المجال الواسع لاظهار تفوقه وشراسته.

ابتسمت له اثناء الحديث وكأنها مسرورة مما قاله لها، ولكنها في الحقيقة كانت تشعر بسعادة لا تضاهى. . . لزوال مخاوفها من ان ابنة خالها ستحل محلها في قلب الجد الثري. لا داعي للقلق بعد الآن، فمن الواضح انها وجدها يناسبان بعضهما تماماً. سألهما الجد فجأة، وهو ينظر اولاً الى ابريل ومنها الى روزاليا:

ـ هل تشعران بارتياح تام، ام انكما متعبتان جداً للتمتع بدعوة اعتبرها اهتماماً خاصاً بكما؟

جاء البريق الخاطف في عيني ابريل وملامح البهجة والسرور في وجهها

رداً كافياً على دعوته، في حين احمّر وجه روزاليا خوفاً وقالت له بارتباك شديد:

ـ نعم. . . لا. . . اي. . . اعني. . .

هبت ابريل لمساعدتها، فقالت:

ـ انها مستعدة للقيام باي شيء يطلب منها، وهي سعيدة تماماً بتنفيذ القرارات التي يتخذها الآخرون.

ظهرت ملامح خيبة الأمل والتأفف بوضوح على وجه الجد روسيني، قبل ان يتجاهل روزاليا تماماً ويوجه ملاحظته التالية الى ابريل، حتى مع اصراره على استخدام صفة المثنى في المخاطبة:

ـ افهم اذن انكما لن ترددا في حضور عرض للأزياء يقام هذا المساء في قصر صديقتي الاميرة ارمارينا ويعود ريعه الى جمعية خيرية. وبما ان تكاليف مثل هذا العرض باهظة، فقد اوضحت الاميرة انها تتوقع من جميع ضيوفها شراء اكبر قدر من الثياب المعروضة.

تبادل الكونت وابريل نظرات معينة، اوحت بان كلاً منهما يفهم الآخر على حقيقته. ففي حين اشار الجد الى انه على وشك تنفيذ الوعد الذي قطعه لها في العام الفائت، الححت الحفيدة بسعادة بالغة الى انها ستختار ما يروق لها دون تردد او خجل.

وجه الجد روسيني نظرة استجواب قاسية الى روزاليا، فانتفض رأسها وكأنما لسعتها حية سامة. . . وأرغمت نفسها على توجيه ابتسامة خجولة اليه. كان واضحاً جداً انها غير مهتمة اطلاقاً بدور الأزياء العالمية، وبالثياب الباهظة الثمن التي يعرض عليها جدها اختيارها هذه الأمسية. تأمل الرجل الثري ثيابها القطنية العادية والبسيطة، ثم سألها بلهجة خبيثة:

ـ من هو مصممك المفضل، يا عزيزتي؟

سنحت فرصة اخرى لابريل كي تدعم موقفها كالحفيدة المفضلة، فتدخلت على الفور قائلة بخبث عائلي:

ـ ليس لديها اي مصمم مفضل، يا جدي. فهي، كما تلاحظ، تخيط ثيابها بنفسها!

تأثرت روزاليا كثيراً من سخريتها الجارحة، فوجهت الى جدها نظرة الم اخترقت الجدران السميكة التي تحيط بقلبه. قال لابنة عمتها بلهجة هادئة،

تهدف الى التخفيف من وقع كلامها الساخر قبل لحظات:

- مهما كان الأمر، فهي تبدو جميلة ورائعة الى درجة كبيرة. اما انت، يا عزيزتي ابريل، فقد انعم عليك الخالق عز وجل بهذه الجاذبية الخلابة التي تسمح لك بالقيام بما تريدين وبأي اسلوب يعجبك. . . وتحظين مع ذلك في النهاية على الثناء والاطراء. قد تشترين ملابس عادية جداً من باعة الأرصفة، وقد ترتدين القمصان والسراويل المفرطة في البساطة، ومع ذلك يمدحك الناس على اسلوبك المميز. ولكن ابنة خالتك ذات شخصية تتطلب الثياب الغنية الرائعة، وأشعر برغبة قوية لرؤيتها ترتدي سترة جدية هادئة من تصميم جيفنشي . . . أو افضل من ذلك فساتين كلاسيكية من تصميم شيرور تناسب جمالها الرصين والدافىء.

ضحكت ابريل باستغراب ، وقالت معترضة على رأيه :

- ولكن لا يمكنك تسمية هذه الملابس بعد الآن ازياء حديثة، يا جدي! لا يزال هناك بالطبع في عالم الأناقة بعض المصممين المتطرفين المتصلبين، كاللذين ذكرتهما لتوك، يصرون بعناد سخيف على الاستمرار في تصميم ثياب قديمة الطراز ومملة وغير مبتكرة! ويرفضون الاعتراف بأن العالم حولهم قد تغير وتبدل، وبأنهم مضطرون. . . اذا هم ارادوا النجاح في دنيا الأناقة العصرية. . . الى ان يكونوا نبهاء، ومتمشين مع التطورات المستمرة والمتلاحقة، وغير متمسكين بالتقاليد القديمة البالية.

رفع العجوز الغاضب يديه عالياً، وكأن الانتقاد وجه اليه شخصياً، وقال لها بانفعال شديد:

- التقاليد القديمة البالية؟ هذه جملة لا معنى لها اطلاقاً بالنسبة الي. لا! لا تحاولي مقاطعتي أو ايضاح هذه الجملة، لانني متأكد تماماً من ان التوضيح سيكون اشد سخافة وأقل ذوقاً من التعبير نفسه!

ثم وقف بعصبية، وقال لحفيدتيه كمن يصدر اوامر عسكرية:

- اذا انتهيتما تماماً، ايتها الفتاتان، فسوف استدعي السائق لاحضار السيارة.

ذهبتا الى غرفتيهما، وهما في مزاجين مختلفين تماماً. ففي حين كانت ابريل ترقص فرحاً لحصولها على ما تريد وغير آبهة بغضب جدها طالما انه لن يحرمها من الثياب والجواهر، كانت روزاليا تسير بتردد وكأنها سترغم على

القيام بأشياء تكرهها.

توقفت بهم السيارة بعد عشر دقائق امام القصر الجميل المشع، الذي كانت تنطلق من داخله اصوات الموسيقى الصاخبة كلما فتحت بوابته الضخمة لادخال الضيوف الأثرياء. وعندما ارشدهم كبير الخدم الى القاعة الكبرى، التي كانت تعج بحوالي مئتي شخص من افراد المجتمع المخملي يتناقشون ويثرثرون ويتسامرون بأصوات عالية تغطي على صخب الموسيقى، شهقت روزاليا بخوف وذعر شديدين. وما ان نزل الثلاثة الدرجات الأربع، حتى فتح المحتشدون طريقاً في وسطهم لمرور الكونت وحفيدته السمراء المغرية الجذابة. . . ثم اغلقوها فوراً لأنهم لم يشعروا بوجود الحفيدة الأخرى.

صرخت روزاليا، التي اصبح يفصلها عن جدها وابنة عمتها جسم بشري هائل، فلم يسمع صراخها احد. . . أو ربما سمعوها وظنوا انها تصرخ كغيرها. عزفت الفرقة الموسيقية لحن الافتتاح وخفف النور في جميع انحاء القاعة، فيما سلطت الأضواء الكاشفة على مسرح اعد خصيصاً لهذه المناسبة. وخلال ثانيتين تقريباً، بدأت اول عارضة ازياء في التمايل على انغام الموسيقى وأخذ عشرات الأشخاص بالتقاط الصور وتسجيل الملاحظات. . . وطلبات الشراء.

شقت روزاليا طريقها بصعوبة بالغة الى احد الأعمدة الضخمة في القاعة الفسيحة، وراحت تتأمل بذهول منظراً جديداً وغريباً تماماً عليها. ولكن صخب الموسيقى كاد يصيب اذنيها بالصمم، فبدأت عيناها تبحثان بلهفة عن طريق للهرب من تلك القاعة المجنونة. ولكن جميع الأبواب سدت في وجهها، ذلك ان الذين وصلوا متأخرين بعض الوقت اخذوا يتدافعون بقوة نحو الأمام لمشاهدة العارضات، والثياب الباهظة الأثمان التي ينوون ابتياعها.

وعندما شعرت باليأس من امكانية النجاة، وضعت يديها على اذنيها لانقاذهما من العذاب المؤلم. . . وراحت تحدق مذهولة بتحول الاحتفال من عرض للأزياء الحديثة المبتكرة الى عرض للأجساد المشوقة المثيرة. وجدت روزاليا الثياب نفسها مثيرة للاشمئزاز والازدراء، وتضايقت كثيراً من الاستغلال الرخيص والتافه للملابس التي تغطي اقل مما تكشف.

ومع ازدياد تضايقها من الثياب الفاضحة، والصخب الذي يسبب أوجاعا في الاذنين والرأس، والدخان الكثيف الذي يكاد يعمي الأبصار، بدأت روزاليا تشعر بالغثيان، والاغماء. لم تعد قادرة على التنفس بسهولة، أو حتى على الاستنجاد بأحد، وأخذت تنهار تدريجياً. الا ان ذراعين قويتين امسكتا بها في اللحظة المناسبة ورفعتاها عالياً، وسمعت صوتاً قاسياً يأمر الموجودين بفتح طريق نحو باب القاعة.

لا شك في انها فقدت وعيها لبعض الوقت، لان اول شيء لاحظته بعد ذلك هو تنشقها هواء نظيفاً منعشاً... ومشاهدتها ضوء القمر الساطع... وسماعها صوت نافورة المياه القريبة. ثم انتبهت الى انها ليست وحدها على ذلك المقعد الحجري، في الجانب الخلفي لحديقة القصر. تطلعت نحو الشخص الذي يجلس قربها دون حراك وينظر اليها بعينين تشعان استياء وانفعالاً، وقالت له بارتباك... ولكن ليس باستغراب أو دهشة:

ـ انت... مرة اخرى!

ثم اضافت بلهجة، فوجئت هي نفسها باستخدامها:

ـ انت كالعقاب، يا سيد، تحلق دائماً قربي وبجانبي. هل اخترت لنفسك مهمة حمايتي؟

اجابها بنبرة جافة، عكست بوضوح تام انزعاجه منها:

ـ العقاب لا يحمي، يا آنسة، بل يلاحق طريدته وينقض عليها... ثم يمزقها شر تمزيق!

ارتجف جسمها خوفاً وهلعاً لدى سماعها تلك الكلمات القاسية، التي تحمل في طياتها تهديداً عنيفاً، وشعرت باستياء شديد من لهجة الاحتقار التي ظهرت جلية في صوته. لقد اعتادت طوال حياتها على ان يتجاهلها الناس بسبب اختيارها العزلة والانفراد، ولكنها لم تكن لتتصور ابداً ان احداً يمكنه ان يكرهها الى هذه الدرجة. قالت له بعزة وانفة:

ـ اشكرك مرة اخرى على انقاذي.

ثم لفت شالها حول عنقها، ومضت الى القول:

ـ لا داعي لانتظاري، فأنا بخير تماماً. ارجوك الا تضيع على نفسك بقية الحفلة بسببي.

اطلق ضحكة قصيرة قاسية اخترقت اذنيها كالسهام المسمومة، وقال لها باستخفاف وسخرية... تحولا لاحقاً الى غضب شديد:

ـ هل ابدو لك من اولئك الأشخاص الذين يحتاجون الى السعي وراء ملذاتهم في قاعات صاخبة تكاد تختنق من شدة الازدحام، وفي مشاهدة عارضة نصف عارية ترقص امام رجال المدن الذين اضعفهم رغد العيش وترف الحياة؟ هؤلاء الأغنياء الذين يجلبون اموال بلادنا، ولا يعطونها اي شيء في المقابل! تتكدس ارباحهم وتزداد قوتهم المالية الى درجة مذهلة، فيصبحون بالتالي افضل زبائن الشركات والفنادق الأوروبية... في حين ان الفلاحين في الأرياف والمناطق الجبلية لا يزالون يحفرون الأرض ليأكلوا منها، ويستخدمون لذلك اساليب الآباء والأجداد التي تقتصر في معظم الأحيان على الأيدي والأظافر! لديهم في الشمال افضل الجرارات الزراعية وأحدثها، اما هنا في الجنوب فثمة كثيرون لا يعرفون اشكالها اطلاقاً! حتى الخيول قليلة ونادرة، فيضطر الفلاح الى استخدام حماره لكافة الاحتياجات... بما في ذلك انتقاله هو من بيته القديم المتداعي الى السوق الذي يتألم مثله جوعاً وفقراً! البيوت والمحال التجارية الصغيرة بحاجة ماسة الى الترميم الفوري، قبل ان تهوي على من فيها! المال قليل جداً... الناس فقراء ويستخدمون اشياء بدائية ومن صنع ايديهم... والفلاح الذي يملك دراجة هوائية، يعتبر انساناً ثرياً! ومع ذلك... فالنساء مثلك لا يفكرن الا بانفاق الأموال الطائلة، على ملابس قبيحة ورخيصة كالتي تعرض هنا هذه الليلة!

ظلت روزاليا محدقة به، وهي لا تصدق عينيها واذنيها، لم تقل له سوى جملة قصيرة مهذبة، فما باله يلقي عليها المحاضرات والخطب السياسية والاجتماعية والاقتصادية؟ ليس فيه شيء واحد يدل على انه يستخدم يديه وأظافره في حفر التراب واقتلاع الصخور، ومع ذلك فلهجته القاسية المتململة تضج بأصداء الاحتقار والاشمئزاز لهذا المحيط الذي يعيش فيه. سألته عن سبب سخطه العنيف، فوجه اليها نظرات حادة ارعبتها وأخفت من وجهها الاحمرار الذي استعادته قبل قليل. ثم قال:

ـ انا مجرد رجل انساني لم يعد يتحمل جشع الأثرياء وتعاميهم عن الفقر المدقع حولهم. ستتحسن احوالنا وأوضاعنا... يجب ان تتحسن، هكذا

اقول لنفسي، ولكن الصبر ليس احدى فضائلي. فما اريده، يجب ان احصل عليه فوراً... لأني سئمت الواقع المر الذي جعل من الانتظار احدى وسائل الترفيه والتسلية في بلادنا.

قالت روزاليا لنفسها ان هذا الرجل هو بالتأكيد من ذلك النوع، الذي يتمكن من الحصول فوراً على ما يريد. فنظراته الحادة الشرسة، وسطوته النافذة، ولهجته العنيفة، وقوته الجسدية الواضحة، توحي كلها بأنه على استعداد تام للتضحية بالغالي والرخيص كي يحقق اهدافه ومآربه. ارتجف جسمها فجأة، عندما شعرت بخوف حقيقي من العنف المتأجج داخل هذا الرجل... الذي لا يزال يتبعها كظلها منذ وصولها الى صقلية. احست ايضاً بأنها خائفة من الجزيرة ذاتها، من هذه الأرض التي لا يحتاج سطحها الا الى خدش بسيط حتى يتفجر فيها العنف كثورة بركانية. تذكرت فوراً العهد الذي قطعته على نفسها قبل هبوط الطائرة في باليرمو، بأنها ستقاوم الجبن وتتصدى للمهاجمين المحتملين، فاستجمعت قواها وسألته دون تردد:

ـ لماذا انت مهتم هكذا بكافة تنقلاتي وتحركاتي؟ لا تحاول انكار ذلك، فمن الواضح انك عقدت العزم على معرفة كل شيء عني... بما في ذلك المنزل الذي اقيم فيه، وبأنني حفيدة الكونت روسيني. انا ممتنة لك بالطبع لأنك انقذتني من مأزقين كبيرين هذا اليوم، ولكن تواجدك في كافة الأماكن التي اكون فيها لا يمكن تبريره بأنه مجرد صدفة. فلماذا انا بالذات؟ قد افهم اهتمامك بابنة عمي، لأن كل الرجال يهتمون بها... اما انا فلست الا فتاة عادية بسيطة!

ضحك مرة اخرى، وبالشراسة ذاتها، التي لا تفارقه، وقال:

ـ فتاة عادية بسيطة! اذا كان يناسبك الادعاء والتظاهر بأنك لست من انت، فلا بأس من استمرارك في ذلك. ولكن اياك الاستخفاف بذكائي، أو التصوّر بأنك قادرة على خداعي. انت روزاليا، ابنة انجيلو، وحفيدة الكونت بيائرو روسيني دي سيتا ديل مونتي...

توقف لحظة، ثم اكمل حديثه الذي نزل على رأسها كالصاعقة... قائلاً:

ـ ولذلك، فانت... بالنسبة الي... اهم انسان في العالم. لقد

انتظرت وصولك الى هذه الجزيرة بفارغ الصبر، لا بل كنت احترق شوقاً لرؤيتك تدخلين مطار باليرمو، كي اخفف عن كاهلي عبء المهمة ونيرها المرهقين. ومن المنطقي اذن ان ابقيك تحت المراقبة المستمرة، طالما ان الشق الأول والبالغ الأهمية لأمنيتي قد تحقق... بمجيئك الى هنا.

وقف الرجل الغامض ثم احنى رأسه محيياً، وقال:

ـ الى اللقاء! حتى نلتقي مرة اخرى... وأعدك بأن ذلك سيتم قريباً جداً! انت، ايتها الحمامة البريطانية الوديعة، الأداة التي انتظرها... الطعم الذي سأستخدمه لاغراء الحية الرقطاء على الخروج من جحرها!

٥- وريثة للانتقام

وصلت ابريل بعد خمس دقائق، لتجد روزاليا واقفة حيث تركها شبح الانتقام... وقد شلّ الذعر اوصالها وأخرس الخوف لسانها. قالت لها بتأفف واضح:

ـ لماذا تقفين هكذا، كأحد تماثيل هذا القصر، وأنا أبحث عنك في كل مكان؟

وأضافت معاتبة مؤنبة:

ـ كنت أعلم انك غير مهتمة بعرض الأزياء، ولكنني لم أتصور اطلاقاً بأنك ستصلين الى حد تركنا ومغادرة القاعة! تضايق الجد روسيني كثيراً، وكان على وشك الامتناع عن شراء أي شيء لك... ولكنني تمكنت من اقناعه بعكس ذلك.

امسكت ابريل برفق ابنة خالها وبدأت تدفعها برفق نحو بوابة القصر، وهي تقول لها بزهو وفرح شديدين:

ـ ليس هذا وحده فقط، ولكنني تمكنت ايضا من اقناع بعض كبار المصممين العالميين ببيعنا نحن دون سوانا ملابس صممت هذه الليلة... ووقع عليها أمام الجميع، وبمشاركة صاحبة الدعوة نفسها! هذا العرض هو الأخير خلال الموسم الحالي، وقد أوضحت للمصممين أننا لن نمضي هنا الا فترة قصيرة جداً... واننا بحاجة ماسة الى أحدث الأزياء الأنيقة والمبتكرة. وافقوا بعد تردد لم يدم طويلا، لأن الجد روسيني أصر على ذلك وعرض مبالغ سخية لا يمكن لأحد رفضها او حتى تجاهلها!

لاحظت ابريل الضاحكة ان ملامح روزاليا لم تتغير او تتبدل، وكأنها لم تسمع حرفاً واحداً مما قالته لها. فتوقفت فجأة عن متابعة سيرها السريع وهزت قريبتها قائلة بحدة وعصبية:

ـ أليس ثمة شيء في هذا العالم، يوقظك من سباتك ويثيرك؟ اشعر الآن، يا روزاليا، وكأنني فتاة صغيرة مضطرة الى حمل أوزان ثقيلة لا يقوى عليها الكبار والأقوياء... أو كزورق صغير يجر وراءه مرساة سفينة ضخمة! هيا، استيقظي واسرعي! تلك الملابس الرائعة تدعوني، وأنا أريد تلبية دعوتها على الفور!

تمكنت روزاليا أخيراً من استعادة صوتها، فقالت لابنة عمتها:

ـ ابريل، مهلاً! توقفي دقيقة واحدة واستمعي، لأنني سأقول لك شيئاً بالغ الأهمية!

هزت ابريل رأسها تأففاً، ولكنها سيطرت على نفاد صبرها عندما لاحظت ان ابنة خالها متضايقة بشكل جدي. قالت لها روزاليا متلعثمة:

ـ لا أعرف كيف... ومن أين... سأبدأ. ثمة رجل... رجل يبدو وكأنه زعيم عصابة... رجل يلاحقني منذ وصولنا الى باليرمو! والليلة... قال لي... هدّدني... رباه لا أعرف بماذا هددني، ولكنني أعرف انه... انه رجل يشكل خطراً كبيراً!

اجلست ابريل قريبتها المذعورة على مقعد حجري قريب، وهي تقول لها كمن يمازح طفلا صغيراً:

ـ يشكل خطراً كبيراً... على من، يا عزيزتي؟

ثم وضعت يدها على جبين روزاليا، فأحست بالعرق البارد يتصبب منه. قطبت حاجبيها، وسألتها:

- هل انت واثقة من انك بخير... من الناحية الصحية؟

- طبعاً، طبعاً!

لم تصدقها ابريل، بل وضعت يدها على كتف روزاليا مواسية، وقالت:

- اجلسي هنا ولا تتحركي من مكانك، فيما أذهب أنا لاطلاع الجد روسيني على حقيقة الأمر. أعتقد انك تهذين، وبحاجة الى طبيب يعالجك فوراً. لن أغيب الا بضع دقائق، فلا تخافي! أؤكد لك بأنه لم يعد هناك في صقلية اليوم أي رجال عصابات! وكيف يمكن لأحد ان يلاحقك ويهددك، طالما انك معنا طوال الوقت؟ أرجوك ألا تقلقي، فانت لا تواجهين أي خطر على الاطلاق!

راقبت روزاليا ابنة عمتها وهي تركض نحو القصر، وقالت لنفسها انها هي وحدها المسؤولة عن الاستنتاج المنطقي الذي توصلت اليه ابريل. فهي لم تذكر لها أي شيء من الحديث الذي تبادلته مع الغريب الغامض، ولم تطلعها اطلاقاً على الحادثة التي تعرضت لها في السوق... كما انه لم يكن بامكان ابريل معرفة ما حدث لها داخل القاعة وفي الفترة التي تلت ذلك. وعندما رأت جدها الكونت يهرع نحوها، ومعه ابريل وسائقه، تأكد لها بأن أي محاولة للاحتجاج او التبرير ستكون عقيمة الفائدة... وبخاصة بعدما سمعت ابنة عمتها تقول:

- كانت تهذي عن أشياء خيالية... عن رجال عصابات يلاحقونها ويهددونها. كانت عيناها زائغتين، وكأنهما تحدقان في المجهول... وكانت ترتجف كورقة في مهب الريح، مع ان جبينها كان حاراً عندما وضعت يدي عليه!

لم يضيع الكونت وقته بالاستفسار او توجيه الأسئلة، بل بادر فوراً الى اصدار الأوامر اللازمة الى سائقه اليستدرو:

- احمل الصغيرة الآن الى السيارة وخذها الى البيت، ثم ابلغ ريتا بأن تضعها فوراً في سريرها.

- لا، يا جدي، لا داعي للحمل اطلاقاً... فأنا قادرة تماماً على السير بمفردي نحو السيارة!

صرخ بها الرجل العجوز قائلاً:

- ستفعلين كما يقال لك، يا فتاة!

الا انه اعتذر على الفور عن لهجته القاسية، فقال:

- آسف، يا عزيزتي، ولكنني قلق عليك... قلق الى درجة انني لن أشعر بأي ارتياح قبل ان يراك طبيبي الخاص. سأجده بسرعة وأطلب منه الذهاب الى البيت فوراً.

حاولت روزاليا الاحتجاج مرة أخرى، فقالت لجدها:

- أتمنى لو انك تصدقني، عندما أقول لك انني بخير! ما قلته لابريل هو الحقيقة... كل الحقيقة! ثمة رجل يلاحقني كظلي، منذ لحظة وصولي الى صقلية. وعندما أغمي عليّ الليلة في القصر، حملني الى هذه الحديقة بالذات وهددني بأنه سوف... سوف...

سألها بلهفة، وهو يدرك بالطبع اكثر من ابريل بان اي شيء محتمل في جزيرة المشاعر الملتهبة والعواطف البركانية:

- بماذا هددك، يا صغيرتي؟

- لست متأكدة بالضبط، ولكنه...

- اوه!

خف التوتر والتحفز في ملامح وجهه، ولكن القلق على صحتها حل محلها بسرعة. قال لسائقه بلهجة لا تقبل الجدل او المناقشة:

- خذها الى البيت، يا اليستدرو، وأسرع!

أكد الطبيب بعد قليل أقوال روزاليا، بأنها لا تعاني من أي مشكلة على الاطلاق، وقال موضحاً الموقف:

- انه الارهاق الناجم عن الرحلة الطويلة، والشعور بالاثارة لقيامك بهذه الزيارة. ومن المؤكد ايضا بأن طقسنا الحار لعب دوره في ارهاق جسمك. خذي الأمور بهدوء في البداية، وتذكري دائماً ان تضعي قبعة كلما ذهبت خارج البيت.

قبعة! لم يعكس وجهها الشاحب أياً من مشاعر الخوف التي تسيطر عليها، فهي ليست بحاجة الى حماية رأسها من أشعة الشمس القوية... بل من التلميحات البربرية والتهديدات المصاغة بلهجة باردة شرسة، لرجل برز فجأة في حياتها وكأنه آت من عالم الغيب!

هل هو من صنع خيالها؟ راحت تتأمل بدقة أوجه الأشخاص الواقفين حول سريرها... ابريل، جدها، والطبيب... وكانوا جميعاً يحاولون اقناعها بأنه لا وجود لذلك الرجل. ولكنها متأكدة من انهم يرتكبون خطأ فادحاً، فالأشباح لا تملك أصابع فولاذية كتلك التي طوق بها ذراعها... والتي لا تزال تشعر بوطأتها حتى الآن!

تناولوا فطورهم صباح اليوم التالي، وبدأوا يعدون العدة للتوجه الى سيتا ديل مونتي. بدا اليسندرو حائراً جداً في كيفية وضع تلك المجموعة الكبيرة من الحقائب والأكياس الجلدية الأنيقة، داخل صندوق السيارة. وبعد نصف ساعة من المحاولات المتكررة لترتيب الامتعة واعادة ترتيبها، بحيث يضمها كلها ذلك الصندوق الضخم، اعترف السائق المتمرس بخجل شديد ان ثمة حقيبة كبيرة يجب ابقاؤها في باليرمو. قالت له ابريل بلهفة واضحة:

ـ يجب أن نأخذ هذه الحقيبة بالذات، مهما كلف الأمر، فهي تضم الملابس الجديدة التي ابتعتها ليلة امس! ضعها على المقعد الخلفي، يا اليسندرو، وسنجلس انا وابنة خالي على جانبيها بكل سهولة ودون أي انزعاج.

ما ان وصلت السيارة الى ضواحي باليرمو، حتى توقفت الأحاديث العادية المتفرقة التي تبادلها الكونت وابريل. غرق الرجل العجوز في تفكير عميق، في حين جلست ابريل بارتياح بالغ وهي تهنىء نفسها على الانتصارات التي حققتها حتى الآن. اما روزاليا... فقد كانت مسرورة من ذلك الصمت، الذي يتيح لها فرصة القاء نظرة هادئة على بلاد لم ترها من قبل... وتبدو لها مع ذلك مألوفة الى درجة مذهلة.

تأملت المساحات الشاسعة من كروم العنب وحقول الليمون، التي تنضج ثمارها تحت أشعة الشمس الساطعة. فغابت عن مخيلتها في تلك اللحظات صورة وطنها... بريطانيا. وخلال فترة قصيرة من الزمن، اختفت السهول الخضراء وأزهارها الملونة الرائعة... وحلت محلها سفوح الجبال الجرداء، التي تكافح عليها قطعان صغيرة مبعثرة من الغنم والماعز لايجاد الغذاء النادر.

خفّت سرعة السيارة بعد دقائق قليلة، وهي تنطلق صعوداً نحو غابة من

أشجار الصنوبر الجميلة. سرّت روزاليا بتلك الرائحة العطرة التي عبقت داخل السيارة، وبالنسيم العليل الذي وفرته لهم الأشجار الكثيفة وظلالها. وما ان خرجت السيارة من تلك الغابة، حتى بدت أمام عينيها اجزاء كبيرة من الطريق الحلزونية الحادة الارتفاع... التي تلف الجبل حتى قمته.

تطلعت نحو الانحدار الشديد الى يمينها، فشاهدت في نهايته البعيدة سهلاً ساحلياً عريضاً زرعت بعض أطرافه بالملاّحات وطواحين الهواء... فيما انتشرت حول المرفأ الصغير ابراج وبيوت مبنية على الطراز الاسباني. وعندما امتد نظرها نحو الجزر الصغيرة، شعرت وكأنها جالسة في طائرة مروحية تحلق فوق احدى اللوحات الفنية الرائعة للطبيعة الساحرة الخلابة.

ـ سنصل بعد لحظات يا صغيرتي... انظري! ها هي القرية أمامنا!

تطلعت روزاليا الى حيث أشار جدها، فشهقت باعجاب وابتهاج شديدين... فيما كانت السيارة تدخل القرية عبر قنطرة من حجر الصوان الجميل، الذي صنعت منه ايضا أسوار القلعة وجميع تحصيناتها والطرقات الضيقة المؤدية اليها. وعندما اقتربت السيارة من عش النسور... من القلعة التي بناها اجدادها على تلك القمة الشاهقة، حبست روزاليا انفاسها ثم تنهدت وقالت:

ـ رائعة! رائعة!

ظهر الارتياح الحقيقي لأول مرة على وجه الكونت، وسألها بسرور واضح:

ـ هل تعجبك؟

ـ انها خلابة... مذهلة، يا جدي، بحيث يستحيل عليّ الآن ايجاد الأوصاف الكافية لها!

قال لها باسماً، وهو يساعدها على الخروج من السيارة:

ـ لا داعي للعجلة، يا عزيزتي. انت شابة في مقتبل العمر، ومن عائلة روسيني، وهذا هو بيتك.

كان الاعجاب الشديد مسيطراً عليها الى درجة كبيرة، فلم تعر كلماته ومغزاها أي اهتمام يذكر. تركته يقودها بزهو وسعادة نحو السلم المرمري،

عبر ممر تظلله القناطر المقامة على أعمدة حجرية، ومن ثم الى قاعة فسيحة جداً وذات سقف شاهق الارتفاع. أرجعت الشابة المذهولة رأسها الى الوراء قدر استطاعتها، لتستوعب بنظرة واحدة الجزء الأكبر من ذلك السقف... الذي يشكل بحد ذاته لوحة فنية نادرة، كتلك المجموعة النادرة التي تغطي معظم الجدران. فقد لاحظت روزاليا انه مصنوع من الواح خشبية ضخمة، حفرت على كل منها أشكال هندسية ثم طليت جميعها بلون بني داكن. وكانت تتدلى من زواياه الأربع ثريات رائعة كبيرة، يشكل فيها الذهب والكريستال وحدهما ثروة مالية لا يستهان بها.

عبرا أرض القاعة، التي تنتشر عليها مجموعة فريدة من التماثيل، وصعدا السلم الداخلي العريض ليرشدها جدها الكونت الى الغرفة التي اختارها خصيصاً لها. فتح الباب، ووقف ينتظر بمرح وترقب كيف سيكون رد فعل حفيدته على تلك الغرفة. لقد أدرك منذ اللقاء الأول بينهما في مطار باليرمو، انها شخص قليل الكلام. الا ان كل الامتنان الذي تمنى الحصول عليه، جاءه فجأة في صوتها... عندما دخلت الغرفة ووقفت مشدوهة ثم همست بعد تمكنها من حل عقدة لسانها:

ـ أوه، جدي، جدي!

لحق بها الى داخل الغرفة الضخمة، وهو يسألها بصوت رقيق:

ـ ما رأيك بهذه الغرفة يا عزيزتي؟ هل توافقين عليها؟

استدارت نحوه بسرعة لتعبر له عن اعجابها وشكرها، الا انها لم تتمكن من التفوه بأي كلمة على الاطلاق. ابتسم لها جدها بطريقة هادئة، حاول بها عدم الافصاح تماماً عن كامل سروره وابتهاجه، ثم ربت على كتفها وقال:

ـ سأتركك الآن على انفراد، لترتاحي وتستقر بك الأمور. ربما اننا لم نجد حتى الساعة الوقت الكافي للتحدث معاً. فسوف يسعدني جداً اذا نزلت لمقابلتي في مكتبي... بمجرد انتهائك من ترتيب أمتعتك وحوائجك. هل تكفيك مثلا ثلاثون دقيقة؟

هزت روزاليا رأسها كدليل على الموافقة، فخرج باسماً وأغلق الباب وراءه. لم تتحرك من مكانها في وسط الغرفة، بل راحت تحدق بالجمال الذي يحيط بها... وتحاول تفسير الخوف الذي تشعر به دونما أي سبب

واضح. لماذا لا ترقص فرحاً وطرباً؟ ولماذا تسمّرت عيناها القلقتان فجأة على صور العصافير الملونة الجميلة، المعلقة على الجدار المواجه لها؟ هل هي خائفة من انها قد تصبح يوماً مثل هذه العصافير... سجينة الى الأبد داخل هذه القلعة الحصينة التي لا يمكن اختراقها؟

نزلت بعد نصف ساعة لمقابلة جدها، فالتقت ريتا التي أرسلها في سيارة خاصة قبلهم لتعد لهم كافة أسباب الراحة والرفاهية. سألتها روزاليا، وهي تشير الى العدد الكبير من الأبواب المزدوجة الضخمة:

ـ أين يقع مكتب جدي، يا ريتا؟

ـ لقد غير الكونت رأيه بالنسبة لمكان اللقاء، يا آنسة. فبالنظر الى هذا الجو الحار، قرر جدك ان تجتمعا على الشرفة الشرقية... حيث ستكونين مرتاحة أكثر مما لو جلست في مكتبه. تفضلي معي، فسوف أرشدك اليها.

لحقت روزاليا بمدبرة المنزل اللطيفة الى تلك الشرفة العريضة، المشرفة عبر قناطرها على باحة واسعة ومناظر طبيعية خلابة، والمعدة لاجلاس حوالي عشرين شخصاً على أريكتين كبيرتين ومجموعة تتناسب معهما من المقاعد والكراسي. وقف جدها لاستقبالها، وقال لها باسماً:

ـ اجلسي هنا، أيتها الحفيدة الجميلة.

ثم أضاف قائلاً، وهو يجلس قربها على الأريكة:

ـ وأخيراً... سنحت لنا الفرصة للتحدث على انفراد! ولكنك تبدين متوترة الأعصاب، يا عزيزتي. ارتاحي قليلا واستمعي الى الانغام العذبة، التي تصدر عن نوافير الماء هذه. انها سبع، تمثل كل واحدة منها مئة سنة من ملكية عائلة روسيني لهذه القلعة. وفي العام المقبل، تبدأ المئة الثامنة... وتقضي تقاليد العائلة بتشييد نافورة ثامنة. وأريدك انت ان تكوني الشخص الذي يختار تصميمها.

ـ أنا!

أمسك جدها بيدها، فكادت تقفز الى الوراء ذعراً ورعباً... وقد تحولت موسيقى النوافير في أذنيها الى تنهد وبكاء وعويل. قال لها:

ـ نعم، يا عزيزتي، هذا هو الموضوع الذي أريد مباحثتك فيه. فأنت وريثتي والشخص الوحيد الذي يحمل اسمي، واسم هذه العائلة العريقة. كل ما ترينه حولك هو ارثك، وحق مكتسب لك بالولادة. هذا هو السبب

الوحيد في اصراري على ابريل، لاحضارك معها هذه السنة.

تذكرت روزاليا مخاوف أمها، عن وجود دوافع غامضة وراء هذه الدعوة المفاجئة لزيارة الجد روسيني. ولكنها رفضت التصديق بأن ابنة عمتها لا تبادلها المحبة والعاطفة ذاتها، اللتين تكنهما لها منذ طفولتها. تألمت كثيراً عندما أدركت ان ابريل استغلت هذه المحبة، للتمكن من خداعها وحملها على مرافقتها.

- سيكون من واجبك بالطبع ان تقيمي هنا، في سيتا ديل مونتي.

انتفضت روزاليا في مكانها، وقالت:

- لا يمكنني القيام بذلك، فامي لن تقبل اطلاقاً بالتخلي عن بيتها.

قال لها الجد روسيني ببرودة قاسية جداً، جعلتها تتصور ان المياه توقفت عن التدفق او تحولت فجأة الى جليد:

- لا مكان لأمك هنا، يا روزاليا روسيني!

ثم مضى الى القول بلهجة اكثر هدوءاً، مع انه ظل ينقر على مقبض عصاه بشيء من الحدة والعصبية:

- كان والدك ابني الوحيد. فقد أبلغني الطبيب بعد ولادته امراً مؤسفاً للغاية، وهو ان زوجتي... جدتك... لم تعد في وضع صحي يسمح لها بانجاب اي طفل آخر.

لم تجد الكلمات المناسبة للتعليق على جملته، فتابع حديثه قائلاً:

- لا شك في انك تعرفين عن الصدع الذي حدث بيننا... الصدع الذي لم يكن لي يد في احداثه، والذي حاولت مراراً عديدة العمل على رأبه. اني القي بمسؤولية ذلك، ورفض ابني المستمر لكافة محاولات التهدئة واقامة الجسور التي بذلتها معه، على التأثيرات الخارجية.

- هل تلمح الى ان امي...

- أنا لا المح أبداً، بل احدد الوقائع والحقائق الثابتة. ولكننا لن نجادل في هذا الموضوع، لأن وفاة والدك جعلت منه مسألة لا اهمية لها. على انني قادر على القول بكل جدية وثقة وأمانة، ان أباك كان ابناً عظيماً... ورجلاً يتحمل كافة مسؤولياته بكل شجاعة وضمير حي. ولو انه منح الفرصة الكافية، لأصبح بالتأكيد الخلف الناجح والمناسب لوالده... ولبقية رجال عائلة روسيني العظماء الذين سبقوه. انا أعرفه أكثر بكثير مما تعرفينه أنت،

يا عزيزتي. لقد تدرب أبوك طوال حياته، رضيعاً وصبياً ومراهقاً، على العيش كالنبلاء. صحيح انه عمل في الحقول والمزارع بناء على تعليماتي واصراري، ولكن ذلك كان ضرورياً جداً بالنسبة له ولمستقبله. كان عليه ان يعمل مع عماله وفلاحيه ليصبح على معرفة تامة بهم، ولكي يحترموه هم بدورهم... ليس فقط كسيدهم، بل ايضا كرجل لا يطلب منهم القيام بشيء لا يقدر هو على القيام به. نعم، يا عزيزتي، فعباءة الزعامة قد تشكل عبئاً ثقيلاً على من يرتديها. ولهذا خلعتها عليه في سن مبكرة جداً، حتى يصبح مع مرور السنين معتاداً على وزنها وثقلها. ولكن تلك العباءة، ويا للأسف الشديد، سحبت عن كتفيه ومزقت شر تمزيق... رغماً عنه وعن ارادته.

أحست روزاليا بوقع النظرات الفولاذية القاسية على وجهها، فرفعت رأسها نحو ذلك الرجل الذي قال جملته الأخيرة بصوت حزين متألم. شعرت ان جدها ينظر اليها ولكنه لا يراها، لأنه يحدق بالماضي الذي لا يزال حياً في ذاكرته ومخيلته. لم تجرؤ على التحدث اليه، فقد بدا لها بوضوح انه مستاء جداً وهو يحاول العودة الى الحاضر لاكمال حديثه.

- لم أقدر ان أتصور ابني خبازاً وصاحب محل صغير لبيع الحلوى، وقد يكون من الصعب عليك انت بالقدر ذاته تخيله هنا بين أتباعه يحمل مشاكلهم، يلبي مطالبهم الحقة، يشاطرهم ضحكهم وفرحهم، ويمزج دموعه بدموعهم!

رمى عصاه الثمينة على الأرض بقوة كادت تحطمها، ثم ضرب حافة الأريكة بقبضته وهب واقفاً كشاب في العشرين من عمره.

- من العار ان يحرم ابني من تراثه ووطنه وشعبه، بسبب... بسبب امرأة!

شعرت روزاليا بأن السموم التي حملتها كلماته وصلت الى أعماقها، وكادت تصيبها بالغثيان. اتضحت لها فجأة دوافعه، فيما كانت كلمة الانتقام ترن كالأجراس في اذنيها. لم يستدعها الى صقلية بسبب حبه لابنه، او لأنه يحتاج اليها لتحل محله بعد وفاته، بل لأنه أراد الانتقام من أمها. لا شك في انه يحتقرها ويكرهها الى درجة هائلة، لأنها حرمته اولا من ابنه ثم من ابنته.

لاحظ الرجل العجوز، وهو ينظر الى عينيها المذعورتين، انه تسرّع كثيراً في الكشف عن حقيقة مشاعره . . . وتمادى في ذلك الى حد بعيد. استخدم ارادته القوية، فتمكن بعد جهد من السيطرة على سخطه ونقمته وأرغم ملامحه القاسية المتحجرة على التحول الى نظرات ندم وأسى. قال لها، معتذراً عن ادخال الرعب الى قلبها، ومحاولا التأثير على عواطفها:

ـ انا آسف، يا عزيزتي، لانني سمحت لمشاعري واحاسيسي بالتفجر امامك على هذا النحو القاسي. أرجوك . . . أتوسل اليك . . . حاولي التغاضي عن اخطاء الشيخوخة وانفعالاتها. الأشجار تزداد قوة وصلابة كلما تقدم بها الزمن، والأنهار تزداد اتساعاً، ولكن الرجال المتقدمين في السن يغرقون في وحدتهم وأحزانهم. ابقي معي، يا روزالبا! انا متأكد من أن والدك كان سيحب ذلك ويتمناه، فدمه يجري في عروقك وطبيعته تعيش في أعماقك! سيحيا ثانية بك، وعبرك!

٦ ـ بعض الحنان الفظ

امضت روزالبا بقية ذلك النهار بعيدة عن جدها، لتحاشي مواجهته أو الاصطدام به. خرجت من القلعة لتتفقد الأراضي المحيطة بها، فلاحظت انها مزروعة في معظمها . . . ولكنها توحي في الوقت ذاته بأن الفضل الأكبر في منحها هذا الجمال الساحر الخلاب يعود الى الطبيعة، وليس الى الانسان.

المياه غزيرة في القلعة وجوارها، ولكنها لا تستخدم للشرب والسباحة والري فحسب . . . بل ايضاً كأنغام موسيقية عذبة، ومرايا تعكس اشعة الشمس الذهبية لوحات فنية رائعة. راحت تبحث عن مصدرها، فتبين لها انها تتفجر من احد الينابيع الجبلية القريبة. تابعت خط تدفقها بين الصخور، فاكتشفت لاحقاً ان قسماً يصب في مستوعب زجاجي ضخم

تسبح فيه مجموعات كبيرة من الأسماك وتظلله غابة من الأشجار القديمة . . . في حين يخترق المجرى الآخر الجهة الجنوبية للغابة وينهمر شلالاً قوياً فوق الجنائن والحدائق، التي تبدأ من تلك النقطة وتنتهي حول باحة القلعة.

جلست روزاليا على حافة البركة التي تتجمع فيها مياه الشلال، وتتوزع منها الى النوافير السبع في حديقة القلعة. اغمضت عينيها لحظة لتسمع خرير المياه بروحها وقلبها، فشعرت بعد فترة قصيرة بعودة السكينة والطمأنينة جزئياً الى افكارها المشتتة وأعصابها المتوترة. تطلعت الى يمينها، فشاهدت تمثالين نصفيين للرمزين الحاميين للأنهر. كانا ينظران الى جهتين معاكستين، وكأنهما يرفضان الاعتراف بوجود بعضهما. تنهدت روزاليا وتساءلت بأسى ومرارة عن سبب هذا الهوس المجنون بعزة النفس والتفاخر، في مثل هذه البلاد الجميلة والطبيعة الساحرة! الملامح تصورهما، العيون تعكسهما كالمرايا، الكلمات والاشارات تضج بهما، وحتى التماثيل الحجرية تتحدث بعنف عنهما! نظرت الى احد التمثالين، الذي كان يبدو اقل شراسة وقساوة، وخاطبته بالقول:

ـ اخبرني، كيف يمكنني الهرب من هنا؟ اليس من السخافة والسخرية، في عصر حرية الفرد هذا، ان اتخوف من ان جدي يريد ابقائي في صقلية رغم ارادتي؟ انت وأنا نعرف تماماً ان الكونت روسيني لا يزال يعيش في قلعته الجبلية الحصينة كما عاش اجداده في القرون الماضية، عندما كان كل منهم حاكماً بأمره وذا سلطة مطلقة. لا فائدة ترجى من أي محاولة للحوار معه أو استخدام العقل والمنطق، وليس من الحكمة اطلاقاً التصدي له أو الاعتراض على اوامره.

انتظرت برهة وكأنها تأمل في الحصول على رد أو اقتراح من التمثال، ولكنها انتبهت الى انه لم يتزحزح من مكانه أو تتبدل معالمه ولو بنسبة ضئيلة. ما اغباها! اذا كانت المياه المتدفقة عليه منذ مئات السنين لم تتمكن من تحريكه واثارته، فكيف ستنجح في ذلك كلمات فتاة غريبة ضعيفة؟ هزت روزاليا رأسها، وقالت له:

ـ يبدو انه ليس لدي اي خيار، غير اللجوء الى السرية. سأحاول الابتعاد عن جدي وابنة عمتي قدر الامكان، لأفكر بطريقة ما. يجب ان

افعل ذلك، والا فانني سأجد نفسي عما قريب لعبة خرساء صماء في يديه . . . يضيفها الى مجموعته الكبيرة التي يحتفظ بها منذ عشرات السنين!

تجنبت في المساء مرافقة جدها وابريل الى العشاء ، بحجة انها تشعر بصداع شديد. قبل الكونت عذرها فوراً وتمنى لها الشفاء عاجلاً، ثم استدعى ريتا ووجه اليها بعض التعليمات المعينة. وبعد نصف ساعة من ذلك، حضرت مديرة المنزل الى غرفة روزاليا ووضعت صينية طعام على الطاولة القريبة منها، ثم ابتسمت وقالت:

ـ احضرت لك عشاء خفيفاً، يا آنسة، وسأعود في وقت لاحق لآخذ الصينية. وفيما عدا ذلك فان اوامر الكونت تقضي بعدم ازعاجك اطلاقاً. اتمنى لك نوماً هادئاً، وتصبحين على خير.

اكلت روزاليا معظم الطعام الذي احضرته ريتا وشربت كوبين من العصير، وذلك كيلا تتعرض لاستجواب جديد حول فقدانها الشهية وحاجتها الى زيادة وزنها. خلعت ملابسها وارتدت ثياب النوم ثم استلقت على السرير الكبير، تتمتع بالنسيم المنعش الذي يأتيها عبر نافذة عريضة. شعرت وهي نصف نائمة بأن ريتا تسللت الى الغرفة بحذر شديد، ثم غادرتها بالطريقة ذاتها حاملة معها صينية الأكل. ابتسمت روزاليا بارتياح لتصرفات هذه السيدة اللطيفة، وأدارت وجهها نحو النافذة لتتأمل الستائر الرقيقة التي تتراقص بهدوء مع هبات النسيم الخفيفة. وما ان مرت لحظات معدودة، حتى اغمضت الشابة المرهقة الأعصاب عينيها . . . واستسلمت الى النوم العميق.

وفي وقت متأخر جداً، وبينما كان الصمت والظلام يخيمان على القلعة ومن فيها، استيقظت روزاليا وشاهدت شبحاً ضخماً مرعباً يقترب منها. شهقت بذعر وحاولت ان تصرخ مستنجدة، ولكنها احست بيد قوية تطبق على فمها وبصوت بارد قاس يهمس في اذنها:

ـ لا تكوني غبية، يا آنسة! اذا التزمت جانب الصمت والهدوء، فلن تتعرضي لأي اذى. اما اذا حاولت القيام بأي شيء آخر، فلن ارحمك بتاتاً!

ابعد الرجل يده عن فمها، ليحل محلها فوراً شريط لاصق غطى شفتيها المطبقتين بشكل محكم جداً. ثم امسك بذراعيها ورماها على كتفيه

العريضتين، كأنها كيس من الخضار. انساها الذعر والهلع انذاره وتهديده، فحاولت الصراخ... فيما كان الخاطف يخرج بها الى شرفة غرفتها، ولكن الرباط المحكم بدقة كتم صوتها بنسبة كبيرة، فلم يصدر عنها الا الأنين المعلم الضعيف الذي انطلق من انفها.

رفع خاطفها رجله فوق حافة الشرفة الشاهقة الارتفاع، فاحست روزاليا بالدماء تتجمد في شرايينها وطوقت عنقه بذراعيها. ثم رفع رجله الثانية وقفز برشاقة وخفة يحسده عليها الفهود والقردة، نحو احد اغصان شجرة باسقة يبعد جذعها بضعة امتار عن جدار القلعة. توقف قلبها عن الخفقان، فيما كان الغصن يتمايل بعنف ويكاد ينوء تحت حمله الثقيل الذي تضاعف بسبب قوة الاندفاع. نظرت روزاليا الى اسفل، شعرت بانه سيغمى عليها... وبخاصة عندما بدأ خاطفها بالقفز من غصن الى آخر، حتى وصل الى الارض.

انزلها الخاطف عن كتفيه واوقفها على قدميها، فتخيلت ان محنة النزول التي لم تدم في الواقع اكثر من عشرين ثانية.. قد استغرقت دهراً، وافقدتها نصف ما تبقى من حياتها. حاول الرجل ابعاد ذراعيها اللتين تضغطان بقوة خانقة على عنقه، فلاحظ انها كفكي كماشة. ضحك بصوت خافت، ولكن صدمتها كانت اقوى من خجلها... فلم تتمكن من الابتعاد عنه، الا بعد ان قال لها بخبث ودهاء:

- احذري مما تفعلين يا آنسة. فالتصاقك بي الى هذه الدرجة مثير جداً، وانا لست من الرجال الذين يضعون احاسيسهم ورغباتهم في ثلاجة.

حققت سخريته اللاذعة والتهديد الصريح الذي تضمنته، هدفها بسرعة البرق... وكأنها صفعتان قويتان وجهتا الى وجهها وجبينها. استفاقت فوراً من صدمتها وذعرها، وقفزت الى الوراء مرتجفة الجسم ومحمرة الوجنتين. احست في تلك اللحظة بعزاء وحيد، وهو ان الظلام يحجب عن عينيه مشاعر الخوف التي تنتابها... وثياب النوم الرقيقة التي ترتديها. ولكنها فوجئت بانه لم يحاول الامساك بها، كما كانت تتصور وهي تبتعد عنه تلك الخطوة العريضة.

مرت بضع لحظات قبل ان تدرك انها وحدها، وان شبحه الطويل لم يعد قربها. حاولت نزع الشريط اللاصق عن فمها، لتصرخ طالبة النجدة، ولكن الألم الشديد حال دون اتمامها هذه المهمة. ركعت بسرعة وراحت تتلمس الأرض حولها، علها تجد حجراً تقذفه على احدى النوافذ... لاحداث ضجة قد توقظ احداً في الداخل. وجدت حصاة صغيرة فرمتها نحو نافذة قريبة، الا انها ارتطمت بأوراق الشجرة التي تقف تحتها... ووقعت على بعد خطوات قليلة منها. بدأت تركض مذعورة نحو بوابة القلعة، ولكنها شاهدت فجأة ذلك الرجل اللعين يقفز امامها من الشجرة ويمسك بها. اقترب منها الى درجة تسمح لها برؤيته ثم رفع امامها حقيبتها التي احضرها لتوه من غرفتها، وقال:

- سوف تحتاجين الى بعض الملابس!

حدقت به، الا انها لم تتمكن من التحدث اليه... ليس فقط بسبب الكمامة اللاصقة، ولكن ايضاً نتيجة لصدمتها وذعرها واستغرابها! انه الرجل نفسه الذي حاولت ابلاغ جدها وابريل عنه... الرجل الذي تخيلته كزعيم عصابة بسبب افكاره المتطرفة وروحه العدائية... الرجل الذي يرى فيها طبقة يحتقرها ويريد معاقبتها! ولكن... كيف سيفعل ذلك؟ كيف سيكون شكل اقتصاصه من المجتمع الثري المميز، ممثلاً بها؟ هل سيكتفي بحرمانها من الترف والرفاهية؟ هل سيحتفظ بها كرهينة، ويطالب بفدية لاطلاق سراحها؟ وهل سيقتلها، اذا لم يحصل على مطالبه؟ ام انه يخطط لأشياء اعظم وادهى، كأن يحاول مثلاً...

تمكن الرجل من قراءة افكارها ومخاوفها، عبر نظراتها المذعورة والزائغة، فابتسم وقال لها بسخرية قاسية:

- ما تفكرين به الآن، يا آنسة، امر رائع جداً... بالنظر لنعومتك ورقتك وجمالك. ومع انني اتمنى ذلك الى درجة كبيرة، الا ان الوقت لا يسمح لنا اطلاقاً بمثل هذه الأمور.

امسك بذراعها، وبدأ يبتعد بها سريعاً عن القلعة. تألمت قدماها الحافيتان كثيراً، ولكن اصوات التوجع والأنين لم تصل الى اذنيه... او انها وصلت ولم يأبه بها! برزت امامها فجأة سيارة لاندروفر مخبأة بطريقة ذكية بين مجموعة من الأشجار والصخور، فأمرها بالصعود اليها. ادار محرك السيارة القوية المخصصة للطرقات الجبلية الوعرة، ثم خلع سترته وأعطاها اياها قائلاً:

العريضتين، كأنها كيس من الخضار. انساها الذعر والهلع انذاره وتهديده، فحاولت الصراخ... فيما كان الخاطف يخرج بها الى شرفة غرفتها، ولكن الرباط المحكم بدقة كتم صوتها بنسبة كبيرة، فلم يصدر عنها الا الأنين المعلم الضعيف الذي انطلق من انفها.

رفع خاطفها رجله فوق حافة الشرفة الشاهقة الارتفاع، فاحست روزاليا بالدماء تتجمد في شرايينها وطوقت عنقه بذراعيها. ثم رفع رجله الثانية وقفز برشاقة وخفة يحسده عليها الفهود والقردة، نحو احد اغصان شجرة باسقة يبعد جذعها بضعة امتار عن جدار القلعة. توقف قلبها عن الخفقان، فيما كان الغصن يتمايل بعنف ويكاد ينوء تحت حمله الثقيل الذي تضاعف بسبب قوة الاندفاع. نظرت روزاليا الى اسفل، فشعرت بانه سيغمى عليها... وبخاصة عندما بدأ خاطفها بالقفز من غصن الى آخر، حتى وصل الى الأرض.

انزلها الخاطف عن كتفيه واوقفها على قدميها، فتخيلت ان محنة النزول التي لم تدم في الواقع اكثر من عشرين ثانية.. قد استغرقت دهراً، وأفقدتها نصف ما تبقى من حياتها. حاول الرجل ابعاد ذراعيها اللتين تضغطان بقوة خانقة على عنقه، فلاحظ انها كفكي كماشة. ضحك بصوت خافت، ولكن صدمتها كانت اقوى من خجلها... فلم تتمكن من الابتعاد عنه، الا بعد ان قال لها بخبث ودهاء:

- احذري مما تفعلين يا آنسة. فالتصاقك بي الى هذه الدرجة مثير جداً، وأنا لست من الرجال الذين يضعون احاسيسهم ورغباتهم في ثلاجة.

حققت سخريته اللاذعة والتهديد الصريح الذي تضمنته، هدفها بسرعة البرق... وكأنها صفعتان قويتان وجهتا الى وجهها وجبينها. استفاقت فوراً من صدمتها وذعرها، وقفزت الى الوراء مرتجفة الجسم ومحمرة الوجنتين. احست في تلك اللحظة بعزاء وحيد، وهو ان الظلام يحجب عن عينيه مشاعر الخوف التي تنتابها... وثياب النوم الرقيقة التي ترتديها. ولكنها فوجئت بانه لم يحاول الامساك بها، كما كانت تتصور وهي تبتعد عنه تلك الخطوة العريضة.

مرت بضع لحظات قبل ان تدرك انها وحدها، وان شبحه الطويل لم يعد قربها. حاولت نزع الشريط اللاصق عن فمها، لتصرخ طالبة النجدة،

ولكن الألم الشديد حال دون اتمامها هذه المهمة. ركعت بسرعة وراحت تتلمس الأرض حولها، علها تجد حجراً تقذفه على احدى النوافذ... لاحداث ضجة قد توقظ احداً في الداخل. وجدت حصاة صغيرة فرمتها نحو نافذة قريبة، الا انها ارتطمت بأوراق الشجرة التي تقف تحتها... ووقعت على بعد خطوات قليلة منها. بدأت تركض مذعورة نحو بوابة القلعة، ولكنها شاهدت فجأة ذلك الرجل اللعين يقفز امامها من الشجرة ويمسك بها. اقترب منها الى درجة تسمح لها برؤيته ثم رفع امامها حقيبتها التي احضرها لتوه من غرفتها، وقال:

- سوف تحتاجين الى بعض الملابس!

حدقت به، الا انها لم تتمكن من التحدث اليه... ليس فقط بسبب الكمامة اللاصقة، ولكن ايضاً نتيجة لصدمتها وذعرها واستغرابها! انه الرجل نفسه الذي حاولت ابلاغ جدها وابريل عنه... الرجل الذي تخيلته كزعيم عصابة بسبب افكاره المتطرفة وروحه العدائية... الرجل الذي يرى فيها طبقة يحتقرها ويريد معاقبتها! ولكن... كيف سيفعل ذلك؟ كيف سيكون شكل اقتصاصه من المجتمع الثري المميز، ممثلاً بها؟ هل سيكتفي بحرمانها من الترف والرفاهية؟ هل سيحتفظ بها كرهينة، ويطالب بفدية لاطلاق سراحها؟ وهل سيقتلها، اذا لم يحصل على مطالبه؟ ام انه يخطط لأشياء اعظم وادهى، كأن يحاول مثلاً...

تمكن الرجل من قراءة افكارها ومخاوفها، عبر نظراتها المذعورة والزائغة، فابتسم وقال لها بسخرية قاسية:

- ما تفكرين به الآن، يا آنسة، امر رائع جداً... بالنظر لنعومتك ورقتك وجمالك. ومع انني اتمنى ذلك الى درجة كبيرة، الا ان الوقت لا يسمح لنا اطلاقاً بمثل هذه الأمور.

امسك بذراعها، وبدأ يبتعد بها سريعاً عن القلعة. تألمت قدماها الحافيتان كثيراً، ولكن اصوات التوجع والأنين لم تصل الى اذنيه... او انها وصلت ولم يأبه بها! برزت امامهما فجأة سيارة لاندروفر مخبأة بطريقة ذكية بين مجموعة من الأشجار والصخور، فأمرها بالصعود اليها. ادار محرك السيارة القوية المخصصة للطرقات الجبلية الوعرة، ثم خلع سترته وأعطاها اياها قائلاً:

- هيا، ارتدي هذه السترة! فخططي بشأنك لا تشمل اضاعة الوقت بتمريضك والاعتناء بك، اذا تعرضت لأي نزلة صدرية.

وجدت روزاليا بعض العزاء في ذلك الحنان الفظ... فأي رجل شرير يخلو قلبه تماماً من اي عاطفة ورقة، كان سيتركها كما هي لتتجمد من البرد. ولكن صوتاً داخلياً نبهها الى ان مصلحته، كخاطف يسعى وراء الفدية المالية، تقضي بالمحافظة على صحتها وسلامتها... على الأقل الى ان يحصل على مطاليبه.

شكلت رحلة السيارة على تلك الطرقات الضيقة والملتوية، والتي تنحدر بشكل حاد، امتداداً لذلك الكابوس المرعب الذي بدأ منذ ظهور هذا الرجل في غرفتها. تمسكت ببابها جيداً كيلا ترمى خارج السيارة المنطلقة بسرعة جنونية، وأغمضت عينيها مرات عديدة خوفاً وهلعاً لدى تجاوزهما منعطفات بالغة الخطورة. ولم تشعر بأي ارتياح يذكر، الا بعد ان استوت الطريق بعض الشيء وأخذت خيوط الصباح تشق بسرعة سحب الظلام الدامس. وما ان اشرقت الشمس، حتى اصبح الجبل الذي تتوج قمته قلعة النوافير بعيداً عنها الى درجة كبيرة.

مضت ساعتان تقريباً قبل ان تبدأ السيارة صعوداً حاداً نحو احدى قمم الجبال الجرداء، التي بدت كأنياب شرسة تحاول قضم قطعة من تلك السماء الصافية. شعرت روزاليا بأنها خائرة القوى ومحطمة الأعصاب، وبأن عقلها وجسمها اصبحا اكثر جموداً من هذه الصخور الضخمة، القادرة على اخفاء جيش بأكمله.

خرجت السيارة فجأة من غابة الأحجار والأتربة الى سهل صغير، وبدا ان خاطفها ينطلق بها سريعاً نحو مجموعة من الصخور الضخمة الواقعة على الجانب الآخر. ازداد توترها بسبب هذا التصرف الانتحاري، ثم غرقت في مقعدها وأغمضت عينيها عندما انعطف بسرعته الجنونية حول تلك الصخور... ودخل كهفاً كبيراً مظلماً.

اطاعت اوامره بالخروج، فتعثرت وكادت تهوي على الأرض... لو انه لم يقفز من مكانه بسرعة البرق ويمسك بكتفيها. وقبل ان تلاحظ تماماً ما يجري حولها، انتزع الرجل بخفة ولباقة فائقتين الشريط اللاصق الذي يغطي فمها. احست بوخزة الم بسيطة، ولكنها لم تصرخ أو تصدر اي

اصوات تنم عن معاناتها وأحزانها. كانت شفتاها الناعمتان متورمتين وجافتين، ومعنوياتها ضعيفة ومهشمة. نظر اليها بقساوة، وكأنه سعيد بعذابها وألمها، ثم قال لها:

- اهلاً بك الى عالمنا يا آنسة... الى عالم الفقر والبؤس والأسى، والى جميع الأشباح الذين سيبقون معك اثناء اقامتك غير المريحة!

سألته بصوت يخنقه الحزن والهلع:

- من... من انت؟ وماذا... ماذا تريد مني؟

- اسمي سلفاتوري ديابولو!

راقب رد فعلها بدقة، وهو يتوقع على ما يبدو مشاهدة نوع من الاستغراب والدهشة. وعندما ظلت ملامحها على حالها، مضى الى القول بصوت قاس ينم عن السخط والغضب:

- انا، شخصياً، لا اريد اي شيء منك. فأنت مثلي مجرد اداة في يد القدر... القدر الذي يقضي بأن الموتى لا يمكنهم ايجاد الراحة الأبدية، ما لم يتم تطبيق العادات والتقاليد واطفاء المشاعر المتفجرة والملتهبة بالانتقام وأخذ الثأر.

هزت رأسها بذهول وحيرة، وتمتمت قائلة:

- انا اسفة...! لم افهم ماذا تقول...! هل يمكنك ان تشرح لي حقيقة ما يجري؟

لم يصدق اذنيه، فبصق بعصبية وتململ فائقين وقال:

- انت من عائلة روسيني... وأنا من عائلة ديابولو. هل يحتاج ذلك الى اي ايضاحات أو تفسيرات اضافية؟

لم تجد روزاليا الكلمات المناسبة فوراً للكشف عن حقيقة مشاعرها ومخاوفها، ولكن الذعر والارتباك دفعاها الى القول:

- نعم، انا من عائلة روسيني... ولكنني ولدت في بريطانيا وعشت فيها طوال حياتي، ولم اكن اعرف جدي قبل يوم امس! اما بالنسبة لاسمك، فانه لا يعني لي اي شيء على الاطلاق. واذا كان هناك اي سبب لذلك، فاني اجهله تماماً.

دخلت اشعة الشمس الى الكهف المظلم فأنارته بشكل كاف، بحيث تمكنت روزاليا من مشاهدة التحول المفاجىء في ملامح الرجل ونظراته.

فقد بدت في تلك اللحظة اكثر رقة وأقل قساوة وعنفاً. . . ربما بسبب مواجهته وضعاً لم يكن يتوقعه أو يتصور حدوثه. وفيما كان يتأمل القلق في وجهها، تذكرت روزاليا تعهدها لنفسها بأنها ستتحلى بالشجاعة في التصدي للأخطار والمصاعب المحتملة. ارغمت عينيها على التطلع نحوه ومواجهة نظراته الحائرة المشككة، فلاحظت انه هو ايضاً يتذكر شيئاً ما. وفجأة، وضع يده اليسرى على ذلك الابزيم الذهبي البربري الذي يربط به حزامه الجلدي، وأشار بيده الثانية نحو صندوق خشبي قائلاً:

ـ اجلسي، ايتها البريئة، حتى اشرح لك بعض الأمور المتعلقة بعائلتينا. . . فمن المؤكد انك تجهلين تماماً نظرة عائلة ديابولو الى المشكلة القائمة منذ فترة طويلة. لم تبدأ عمليات الثأر والانتقام اصلاً بين عائلتي روسيني وديابولو، بل بين روسيني وبيشيوتا. .

ـ الثأر والانتقام!

ـ نعم، هاتان هما الكلمتان الوحيدتان اللتان يمكنني استخدامهما في هذا المجال. لدينا نحن ماض بعيد من الوحشية والقساوة، وأكثر ما نقبل الاعتراف به ان اصلنا يعود الى تلك الفترة التي بدأ فيها تحول البشر من البربرية الى المراحل الأخرى. ومع اننا، نحن سكان صقلية، نصر على بلوغنا مراحل التقدم والرقي والحضارة، الا اننا لا نزال متطرفين جداً في حساسيتنا تجاه الاهانات وردود فعلنا العنيفة عليها. ولهذا، فان مبدأ الثأر لا يزال ضرورياً وينفذ على نطاق واسع. ففي مجتمع يفتقر الى السلطة العادلة وغير المتحازة، تصبح سياسة الانتقام الطريقة العملية الوحيدة للحيلولة دون تفجر المزيد من السخط والغضب. وبكلام آخر، يا آنسة، فان ارغام اي رجل. . . حتى كجدك المنتقم الذي لا يعرف الشفقة والرحمة. . . على المعاناة من اعمال شريرة مماثلة لتلك التي قام بها مع الآخرين، قد يفهمه في نهاية الأمر ان العنف لا يجدي على المدى الطويل.

توقع سلفاتوري ديابولو ان تهب روزاليا للدفاع عن جدها، ولكنها ظلت صامتة. . . وهي تشعر بالاشمئزاز مما سمعت لتوها، وتتخوف من ان الأسوأ لم يأت بعد. وعندما ابعدت وجهها عنه، هرباً من نظراته القاسية والمشبعة بالعداء والكراهية، مضى الى القول بنبرة حاقدة:

ـ خطبت ماريا بيشيوتا الى رجل يسمى انجيلو روسيني، وتمت كافة

الترتيبات الضرورية للزفاف. . . الذي حدد موعده قبل التحاق انجيلو بالجيش. وفيما كان خطيبها يخدم فترته في الجندية، راحت ماريا تعمل بجد ونشاط مذهلين وسعادة بالغة، حتى اعدت جميع الأشياء الأساسية والثانوية للبيت الذي ستشاطره مع انجيلو لدى عودته. ولكن انجيلو روسيني، كما تعرفين، بالطبع، لم يعد.

كانت نظرات الاتهام عنيفة جداً في عينيه، وتدعوها الى مناقضته أو الاعتراض عليه. ولكن روزاليا لم تكن على استعداد للقيام بذلك. . . قبل اطلاعها على مجمل المعلومات التي تريدها.

ـ سرت الشائعات بسرعة ان انجيلو روسيني تخلى عن ماريا ونبذها، فعانت الفتاة المسكينة من المضاعفات المحتمة. تلطخت سمعتها وأصبحت موضع شفقة البعض واستهزاء الآخرين، فبرز دور باولو ديابولو على مسرح الأحداث! كان يحبها منذ فترة طويلة، ولكنه لم يجرؤ على البوح بحبه أو حتى على التلميح اليه. . . لأنه كان يدرك مدى اهتمامها وتعلقها بانجيلو روسيني، ويعرف بالتأكيد انها ستذيقه مرارة الخيبة والهوان بمجرد اشارته الى ما يشعر به تجاهها. عرض عليها الزواج منه فلم تتردد لحظة في قبول ذلك، لأن الرفض كان سيعني بالنسبة لها آنذاك حكماً نهائياً ومبرماً ببقائها عانساً طوال بقية عمرها. وكان من الطبيعي، بمجرد زواجهما، ان ينضم باولو ديابولو الى والد ماريا، وأشقائها في عملية الانتقام للاهانة والاذلال. . . من الشخص الوحيد في عائلة روسيني الذي لم يغادر الجزيرة، الا وهو الكونت. ولكنهم لم يكونوا سوى مجموعة من الفلاحين الفقراء، تقتصر مهاراتهم في الحياة على اقتلاع لقمة عيشهم من الأرض التي يعيشون عليها. اما خصمهم ذو الثروة والنفوذ الهائلين والحاكم المطلق في مملكته الصغيرة، فقد كان دائماً محاطاً بحراس مدججين بالسلاح وقابعاً بسلام وطمأنينة وراء اسوار قلعته الحصينة. . . التي يحميها جيش من القتلة المأجورين. وقضت اوامر الكونت الحاقد لرجاله الأشرار بمطاردة جميع الذكور من اقرباء ماريا وقتلهم. . . وبخاصة زوجها ديابولو.

صرخت روزاليا بصوت عال:

ـ لا اصدقك، لا اصدقك! قد يكون جدي متسلطاً ومستبداً وحاكماً بأمره، ولكنه ليس قاتلاً!

ـ اؤكد لك، يا آنسة، ان جدك لم يلوث يديه مرة واحدة باستخدام خنجر أو مسدس أو بندقية. ولكن الأوامر التي اصدرها الى رجاله من المرتزقة المتعطشين للدماء، ادت الى مقتل جميع الذكور في عائلة بيشيوتا... الأب، الأبناء، ابناء الأعمام، وحتى الأقرباء الذين يعود ارتباطهم بالعائلة الى بضعة اجيال خلت. لم يسلم من تلك الحملة الدموية الشنيعة والمجزرة الرهيبة، ولو لفترة وجيزة يا للأسف، الا ماريا الحامل وزوجها. هربا الى هذه الجبال للاحتماء بابن عم باولو، تورينو ديابولو الذي كانت تعتبره السلطات زعيم عصابة ومن قطاع الطرق... فيما اعتبره الفلاحون الفقراء فارساً شجاعاً وبطلاً اسطورياً يحميهم ويدافع عنهم ويزودهم بمعظم ما يحتاجون اليه.

جال بنظره في ارجاء الكهف، ثم اضاف قائلاً بتحسر مرير:

ـ ولد طفل ماريا في هذا الكهف بالذات، وفتح عينيه على جدرانه القاسية ثم بدأ يدب ويزحف على ارضه الخشنة وحجارته المسننة. اعرف الشقاء والعذاب اللذين عاشهما، وأعرف المرارة والوضاعة اللتين عانى ذلهما! اعرف هذه الأمور جيداً، يا آنسة، لأنني انا هو ذلك الطفل! نعم، انا سيلفاتوري ديابولو السمكة الوحيدة التي افلتت من شباك جدك الرهيب... ليس لأنني بطل مغوار وقائد جيش عرمرم، بل لأنه حتى الآن لا يعلم بوجودي!

حدقت روزاليا بوجهه الذي بدا وكأنه قُدّ من هذه الصخور، حيث ولد وعاش شقياً بائساً ويتيم الوالدين. احست بالشفقة على ذلك الطفل، الذي دفعته حياة العنف والقتل الى الاحتماء منذ حداثة سنه بالخارجين على القانون ليتمكن من البقاء حياً. هل يمكنها الاستغراب بعد ذلك، ان يتحول طفل كهذا الى رجل يضج قلبه حقداً وكراهية؟ علمه اولئك الذين ساعدوه، وتحولوا في نظره الى مثل عليا، على الجسارة الفائقة وعدم الخوف من الموت... وعلى احتقار المتسلطين والمستبدين والسعي الى الانتقام منهم. زرعوا في قلبه منذ الصغر بذور العداوة والحقد، فأصبح مقتنعاً بأن الثأر والانتقام هما طعامه وشرابه ووسيلته الوحيدة للبقاء.

ارتجف جسمها وهي تلقي الآن، عبر هذه التفاصيل المذهلة والمرعبة، نظرة جديدة على نفسية جدها البغيضة. لم تكن امها مخطئة اطلاقاً في وصفه

بالطاغية المستبد، ولكنه ليس وحده المسؤول عن تلك الأحداث الدموية التي اوصلت سيلفاتوري ديابولو الى هذه المرحلة المتطرفة والمذهلة من الحقد الأعمى والسعي المجنون الى الثأر والانتقام. لا شك في ان ماريا بيشيوتا كذبت وشوهت الحقائق لتنقذ ما تبقى من كرامتها وعزة نفسها. ولكن، كيف يمكنها ان تقول ذلك لابنها المصمم على الانتقام... والقادر على حرمانها من الحياة في لحظة واحدة؟ ستحاول، والاّ فأين اخلاصها وحبها لوالدها! قالت له بلهجة هادئة:

ـ اذا احبت المرأة واكتشفت ان الرجل الذي تحبه لا يبادلها الشعور ذاته، فانها تلجأ في كثير من الأحيان الى خداع نفسها... والى السماح لقلبها بالاحتيال على ضميرها. لم يعلم ابي اطلاقاً بموضوع الخطوبة، الا عشية دخوله الجندية. اتخذ جدي القرار وأعد الترتيبات اللازمة، دون استشارته أو مباحثته في الأمر... لا بل ان ابي وجد صعوبة في معرفة صاحبة الاسم الذي ذكره له جدي. كان والدي انساناً طيب المعشر حسن السيرة، ويأخذ دائماً مشاعر الآخرين بعين الاعتبار. انت مخطىء تماماً اذا كنت تفترض بأنه ورث طبيعة الكونت روسيني ونفسيته، فقد كانا مختلفين تماماً... و...

قاطعها بصوت اقوى من الرعد، قائلاً:

ـ هذا كلام فارغ... هراء، فالشر لا يلد الا الشر... والذئاب لا تلد الا الذئاب!

تنهدت روزاليا عندما لاحظت انه لا فائدة ترجى من محاولة اقناعه بشيء، أو حتى بمناقشته في هذا الموضوع. فسألته بصوت يرتعش خوفاً:

ـ ماذا تنوي ان تفعل بي؟

ـ سأجعلك تعيشين كما عشنا نحن.

ـ نحن...؟ ماذا... ماذا تعني... بذلك؟

ـ اعني نفسي، ووالديّ المسكينين، والعائلة الوحيدة التي اعرفها... تلك المجموعة الصغيرة من الرجال الشجعان الأشداء الذين ارغمهم طغاة مستبدون امثال جدك على اللجوء الى هذه الجبال وهذه الكهوف، دفاعاً عن كرامتهم وطموحاتهم وأفكارهم. ستشعرين بالبرد كما شعرت امي، وتعانين من قساوة الحياة والوحدة والخوف مثلما عانت هي. ان لم يعجبك الطعام الذي ستعدينه بنفسك على نار المواقد، فسوف تجوعين! وان لم

تحضري بذاتك الكمية التي تحتاجين اليها من مياه الشرب والغسيل، فستعطشين وتصبح رائحتك قذرة ونتنة! واذا وجدت اثناء النوم ان الأرض قاسية جداً تحت ظهرك، فسوف تستيقظين متوعكة متألمة . . . او يصيبك السهاد والأرق فتشعرين كل صباح بالتعب والارهاق الشديدين! ولكن مهمتك الأساسية تكمن في حمل تلك الحية الرقطاء السامة على الخروج من جحرها، حتى يتم انتزاع انيابها.

ـ ماذا؟ هل تنوي ان تقتله؟

ـ لا، لا يمكن ان اقتله . . . مع انني احب ذلك من صميم قلبي. الا ان اشخاصاً آخرين يقدرون على القيام بهذه المهمة . . . وسيقومون بها. اما انا، فسوف ينتهي عملي بمجرد تسليمهم اياه.

ـ لا! لا يمكنك ان تفعل ذلك! انت توحي بانك لست قادراً على قتل انسان ببرودة اعصاب وعن سابق عمد وتصميم، فكيف تقبل بتسليم جدي الى من سيقتله بصورة اكيدة؟ الا تعلم بأن ذلك يجعلك شريكاً كاملاً في الجريمة، مثل الرجل الذي يغمد الخنجر؟ مهما حاولت جاهداً اقناع نفسك بأن الانتقام على هذا النحو عمل وواجب شريفان، فانك في الواقع تغرق نفسك في مزيد من الحقد والكراهية ولذة الانتقام. لا يصح تبرير عمل اي انسان يحاول تطبيق القانون بنفسه، فمثل هذه الحالات تؤدي الى انتشار الجرائم والعنف والسموم. ارجوك! حاول ان تغفر لجدي ما قام به، والأفضل من ذلك ان تغفر له فوراً وبشكل نهائي! اذا مضيت قدماً في خطتك هذه، فستكون من الناحيتين المعنوية والخلقية مسؤ ولاً عن ارتكاب جريمة قتل . . . لا بل جريمتين، لأن عملية الثأر والانتقام لن تحقق نتائجها التقليدية المعتادة ما لم يعمل رفاقك على قتلي انا ايضاً! وهل سأظل عندئذ مجرد اداة لاستدراج جدي، ام اتحول الى ضحية بريئة لا ذنب لها سوى انها حفيدة الكونت روسيني . . . الذي لم تكن تعرفه حتى يوم امس؟

لم يكن لتدفق كلامها بتلك الطريقة غير المعتادة اي صدى في اذنيه، او اي رد فعل في عينيه الفولاذيتين المتحجرتين غير النادمتين. ثم قال لها بصوت هادىء الى درجة الكسل والبرودة:

ـ من المؤكد ان الرجال الفقراء الذين يتضورون جوعاً، يرحبون بالتغييرات التي قد تحدث في نمط حياتهم بين الحين والآخر . . . اكثر من

ترحيبهم بالطعام. وبما ان سكان هذه الجبال هم دائماً جياع فان غريزته البدائية سترفض بعناد واصرار شديدين فكرة اهدار مواهب شابة نشيط وقوية وذكية مثلك.

٧- كأنها طيف ابتسامة

كانت الحرارة خارج الكهف شديدة الى درجة لا تطاق، فيما كان الجو في الداخل خانقاً ويعج بالذباب. تطلعت روزالبا حولها، فلاحظت ان أرض الكهف مسرح لمجموعات هائلة من النمل الكبير الحجم وعدد مختلف من الحشرات ذات الأشكال المفزعة.

وضع ديابولو حقيبتها قرب قدميها، ثم أمرها بأن ترتدي ثيابها وغادر الكهف. الا انه عاد فجأة لدى سماعه صراخها، الناجم عن رؤيتها سحلية تزحف قربها. ضحك باستهزاء عندما شاهد ملامح الخوف والرعب في وجهها، وقال لها:

- انها ليست من الزواحف المؤذية. كنت أمضي في صغري الساعات الطوال، ألهو بملاحقتها والامساك بها. انظري، سأريك الآن كيف

كنت أفعل.

غادر الكهف على عجل، ثم عاد ومعه أحد الأغصان الصغيرة المرنة. ربطه كعقدة، ثم امسك بطرفيه وركع على ركبتيه قائلاً:

- تزحفين نحوها ببطء وهدوء شديدين، وتقتربين بالعقدة فوق رأسها برقة ونعومة... هكذا... بحيث يظل انتباهها مركزاً عليك، وليس على العقدة. وفجأة... تضعين العقدة حول الجزء الأسفل من رأسها... وتجذبين طرفيها بقوة... على هذا الشكل... حتى لا تعود قادرة على التملص منها!

رفع ديابولو السحلية، التي كانت تنتفض بعنف وهي تلفظ أنفاسها الأخيرة، ووضعها أمام أنف روزالبا. اقشعرّ بدنها قرفاً واشمئزازاً من تصرفه، وأبعدت وجهها عنه بعصبية قائلة:

- انت رجل قاس متحجر القلب، تتمتع بتعذيب هذه المخلوقات المرعبة... التي قلت عنها انها غير مؤذية.

- اعترض فوراً على قولك انها مخلوقات مرعبة، وأؤكد لك بالتالي انني لم أقتلها لأجل المتعة. ففي هذه المناطق الجبلية الجرداء، لا يذهب أي شيء هباء... لأن كل ما هو قابل للأكل يستخدم للطعام، وكل ما يمكنه ان يخدم غرضاً او يحقق هدفاً يستغل ويستعمل. والمعروف عندنا هنا ان جسم السحلية عندما يجفف ويطحن، يشكل دواء جيداً جداً.

غادر ديابولو الكهف مجدداً، فعادت روزالبا مرة أخرى الى وحدتها... وذبابها... وزواحفها. فتحت حقيبتها وراحت تقلّب محتوياتها بذهول واستغراب، ثم صرخت بصوت متألم:

- اوه، ابريل! كيف تصورت انني سأقبل مثل هذه الثياب الرهيبة!

لا شك في ان ابنة عمتها تطرفت كثيراً في تشجيعها على ارتداء الملابس العصرية... الجريئة، فاختارت لها من بين الأزياء التي عرضت الليلة السابقة أكثرها جرأة وأقلها حشمة ورصانة. ماذا ستفعل الآن بفساتين السهرات هذه، التي قد تتردد بعض شابات المجتمع المخملي في ارتدائها؟ تكشف عن الكثير ولا تستر الا القليل، فكيف ستواجه بها هذا الرجل الحاقد على الأثرياء وتفاهة هذه المجتمعات... وفي مثل هذه المناطق الجبلية النائية بالذات؟

تضايقت كثيراً من جحافل النمل والذباب وبقية الحشرات الصغيرة الكبيرة، فاختارت بسرعة سروالا جلدياً أسود اللون وقميصاً قطنياً غبيقاً بدون أكمام وسترة حمراء رقيقة خالية من الأزرار. اللعنة! انها تبدو في هذه الملابس السخيفة التافهة، وكأنها تتعمد اغراء خاطفها واغواءه! ولكن... ماذا يمكنها ان تفعل غير ذلك، وهذه هي الثياب الأقل جرأة في هذه المجموعة القبيحة... الوحيدة؟ تنهدت بحسرة وألم شديدين وخرجت من الكهف، وهي تعد نفسها لهجومه الساخر والقاسي. كان يجلس في مكان يشرف على السهل بصورة تامة، بحيث لا يتمكن انسان او حيوان من التسلل نحو الكهف دون أن يراه... تماماً كما كان رفاقه يفعلون في السابق للدفاع عن هذا المعقل الحصين. أحس بوجودها فور خروجها، فهب واقفاً ثم ابتسم بسخرية لاذعة جارحة واقترب منها... وهو يتأملها باستهزاء مشبع بالحقد والكراهية. قال لها، بعد ان خلع سترتها ورماها على كتفه بازدراء واضح:

- اوه، ما هذا! لم أتصور ابداً انني مضطر لتحديد نوع الملابس التي سترتدينها أثناء اقامتك غير المريحة هنا، لأنني اعتقدت انك ذكية الى حد كاف وستختارين الثياب المناسبة لوضعك الحالي. وماذا فعلت عوضاً عن ذلك؟ خرجت من الكهف وكأنك ذاهبة الى حفلة تنكرية، لا يحضرها الا الذين يصفون أنفسهم بالمتحررين من القيود الاجتماعية والرافضين للقيم الاخلاقية. هل انت حقاً ساذجة الى هذه الدرجة، ام انك قررت على ما يبدو القيام بحملة اغراء... تتعمدين فيها تعذيبي، وتأملين من خلالها في ان يكون لجاذبيتك وجمالك تأثير على عقلي وخططاتي؟ اذا كان ذلك صحيحاً، فانك تلعبين بالنار وتسعين الى احراق نفسك.

ذعرت من تهديده الصريح، فسارعت الى نفي التهمة... مرتبكة متلعثمة:

- لم... لم يكن لدي... اي خيار، فهذه الثياب... ليست لي! أعني... انها لي، ولكنني... لم اخترها بنفسي، كما...

- حقاً؟ كانت هذه الملابس في حقيبة تحمل اسمك وموضوعة في غرفتك وقرب سريرك، ومع ذلك فانك تحاولين اقناعي بأنها ليست لك!

جذبها نحوه بقوة، ومضى الى القول:

- لا ترتدي الثياب الرخيصة الا المرأة الرخيصة، وقد ورثنا عن أسلافنا نظرية تقول انه يمكن لليد ان تلمس كل شيء تراه العين!

تسللت يداه فجأة نحو ذراعيها. أذهلتها الصدمة العنيفة الممزوجة بالرعب الشديد، فتسمرت في مكانها دون حراك... وهي تعلم علم اليقين بأن سلفاتوري ديابولو سيعتبر جمودها هذا نوعاً من اللامبالاة، او... دعوة صريحة للمضي قدماً. ومما لا ريب فيه ان الرجل اختار الاحتمال الثاني، ذلك انه احنى رأسه فوق وجهها وعانقها.

اشتعلت دماؤها في شرايينها ثم ارغمت نفسها بعد قليل على دفعه بيديها غير المطوقتين بذراعيه، ولكنه ضمها فوراً الى صدره بقوة وقساوة شديدتين. كادت تذوب من حرارة عواطفه، فارتجفت... ولكن ليس بسبب الخوف والذعر وحدهما. أحست بالاشمئزاز، ولكن ليس نتيجة تصرفاته فقط... بل ايضا بسبب تلك المشاعر التي أحياها بها. لم تبادله عناقه لأنها لم تكن تعرف كيف تفعل ذلك. اغرقتها المشاعر والأحاسيس الجديدة في دوامة مرهقة، فتعلقت بقميصه... وكأنه خشبة النجاة والخلاص. كادت تهوي على الارض، عندما أبعدها عنه بانزعاج بالغ وهو يقول:

- النار تتأجج داخلك، وتصرين مع ذلك على حرماني من التنعم بدفئها! أليس كذلك، يا آنستي الجميلة؟ رغباتك لا تقل عن رغباتي، ولكنك تمثلين دوراً معيناً! تحاولين اقناعي بأن ابنة عائلة روسيني ليست بالضرورة حية سامة، ولكنها قد تكون هادئة... لطيفة... رقيقة... ومسالمة كالحمامة. ليكن لك ما تريدين، يا ذات الوجه الملائكي! استمري في لعبتك هذه، فلن...

- أنا لست ملاكاً، ولا احاول التظاهر بذلك. أنا شابة عادية بسيطة كنت حتى يوم امس، أعيش حياة عادية بسيطة. اما انت، فلست الا مجرد حيوان متوحش ومتعطش للدماء! انت... انت شيطان، اسماً وفعلاً!

ضحك بصوت عال تردد صداه في تلك الجبال العالية، وقال:

- وأنت، يا ذات الوجه الملائكي، هل تعرفين بماذا سيصفك الناس بعدما يسمعون بوجودك معي هنا لفترة طويلة... بمفردنا... وفي هذه المناطق النائية؟ ستصبحين في نظرهم ملاك الشيطان... وهو اللقب

المهين الذي أطلقه جدك العزيز على والدي، فور زواجها من أبي. اعذريني لأن قلبي يرقص فرحاً لتألم الكونت المتوقع، عندما يعرف ان سمومه وأحقاده هي التي ستدمر شخصية حفيدته وتشوّه سمعتها.

أدخل السيارة الى الكهف ودحرج صخرتين كبيرتين الى مدخله، ثم غطى الفتحة المتبقية بكمية كبيرة من أغصان الشجر ليخفي معالم الكهف بصورة تامة. وبعد ذلك أخذ مجموعة أخرى من الأغصان وأزال بها آثار عجلات السيارة من ذلك السهل الصغير وصولا الى المدخل ذاته. وعندما انتهى من عمله هذا، أمرها بالسير على الصخور... ليتأكد من عدم تركها أي آثار لأقدامها. وفجأة، برز أمامها ممر ضيق يتجه صعوداً بشكل شبه عامودي... وكأنه سلم يربط الأرض بالسماء.

- هيا بنا!

- ماذا؟ هل تتصور انني قادرة على الصعود بهذا الحذاء، الذي لم أستخدم مثله من قبل... حتى داخل البيت؟

- أنا لا أتصور شيئاً، ولكنني أطالبك بالصعود. وعندما تجدين صعوبة بالغة في متابعة طريقك، فسوف أساعدك.

كيف يمكنه ان يفعل ذلك، وهو يحمل هذا الكيس الجلدي الثقيل على ظهره وحقيبتها في يده؟ على أي حال، لا جدوى من معارضته أو محاولة عصيان أوامره... فهي في وضع لا يسمح لها بذلك اطلاقاً. رفعت رأسها بشموخ واصرار لم تعهدهما في نفسها من قبل، وبدأت تسير... لا بل تصعد وراءه نحو قمة الجبل.

لم يلتفت اليها الا نادراً، وكانت تحاول في كل من تلك المرات القليلة ان تتظاهر بأنها غير مرهقة الجسم ومتوترة الأعصاب. ولكنه لاحظ عذابها على رغم محاولاتها اليائسة، وبدا انه سعيد بذلك. لم يتوقف لمنحها قسطاً من الراحة، الا بعد مرور ساعة كاملة على صعودهما. أنزل الكيس الجلدي عن ظهره وأخرج منه قنينة ماء، ثم جلس على صخرة كبيرة ملساء وأعطاها القنينة التي فتحها لتوه قائلا:

- نقطة ماء في مثل هذا الوقت أفضل من ثروة طائلة.

انتزعت روزاليا القنينة من يده بسرعة، ووضعتها على شفتيها اللتين كادتا ان تجفا من شدة الحر... وبدأت تشرب حتى ارتوت. آه، كم هي

لذيذة هذه المياه... حتى على الرغم من سخونتها! قالت له، وهي تعيد القنينة اليه:

- شكراً، شكراً جزيلا! كنت أشعر بأنني سأموت من العطش!

شرب جرعة صغيرة وأعاد القنينة شبه الفارغة الى الكيس، ثم قال لها باحتقار وازدراء:

- يا لك من مخلوقة ضعيفة لا نفع منها! لدى الانسان عضلات ليستعملها، وجسم ليحافظ على رشاقته وقوته... ويبقيه في ذروة اللياقة البدنية. ولكن معظم أبناء المدن يهملون أجسامهم وعضلاتهم، ويتحولون الى كتل هشة من اللحم والعظم.

رفع نظره ويده نحو قمة الجبل، ومضى الى القول:

- تعيش فوقنا هناك نساء ينزلن ويصعدن على هذه الطريق خمس أو ست مرات في اليوم الواحد، لمساعدة آبائهن او ازواجهن او أولادهن في الحقول القليلة المنتشرة على هذه السفوح. وبينهن بالطبع من هن أكبر من والدتك سناً، ولم يحصلن طوال حياتهن حتى على جزء يسير من الرفاهية التي تتمتعين بها... ولا تعرفين العيش بعيداً عنها.

ابتعدت عنه حوالى خطوتين، لأن قربه منها أعاد الى نفسها ذلك الحنين القوي الغريب وتلك المشاعر الجياشة. خافت من أن تتمكن نظراته الحادة من سبر أعماق تفكيرها واكتشاف سرها المخجل، فرفعت رأسها نحو القمة وسألته بكثير من الارتباك:

- هل يعيش بعض الناس حقاً في تلك المناطق الشاهقة الارتفاع؟

- نعم... وهم يشكّلون قرية بكاملها. وقبل ان توجهي السؤال التقليدي السخيف... لماذا، دعيني أؤكد لك بأن الأشخاص الذين يولدون ويعيشون في الجبال يفضلون العزلة على ما يسمى الحضارة والمدنية. وأؤكد لك ايضا بأنهم لا يشعرون بتاتاً بالغيرة والحسد من اخوانهم المرتاحين مادياً اكثر منهم، بل يتمتعون قولا وفعلا بعملهم اليومي الشاق والمرهق ويرفضون اختيار رفاهية المدن بديلا عنه.

سألته بخجل شديد:

- هل سنقيم في القرية؟

- لا، فسكانها عانوا الأمرين في الماضي لايوائهم الخارجين على القانون

وأنا لا أنوي بتاتاً افساح المجال امام جدك للتمتع مرة أخرى بالانتقام من أهلي واصدقائي

ـ أين. . .

ـ ستعرفين قريباً. هيا بنا، فوجودنا في هذا المكان بالذات ليس آمناً اطلاقاً. لا شك في أن الرسالة الخاصة بموضوع غيابك وسببه قد وصلت الى جدك منذ بعض الوقت، وانه نظّم فوراً أكثر من فرقة للبحث عن الفاعلين ومطاردتهم. هيا اسرعي، قبل وصول رجاله الى هذه المنطقة.

توقفا مرة أخرى عند الظهر لتناول غداء بسيط جداً مؤلف من قطعتي جبن ورغيف خبز لكل منهما. لم يتحدثا اطلاقاً أثناء الأكل، لان روزاليا كانت مرهقة جداً وتعاني من آلام وأوجاع كثيرة ومختلفة. تمنت لو ان باسكانها النوم هنا بضع ساعات، أو اطلاق العنان لدموعها. . . للتخفيف قليلا عن حزنها وعذابها. ولكن كرامتها رفضت ذلك بشموخ واباء، فحبست الدموع في عينيها وظلت جالسة بشكل مستقيم كأنها في بيتها. وعدها بأنها ستتعذب كما تعذبت امه، ويبدو انه رجل يفي بالوعد. الا انها وعدت نفسها أيضا بألاّ تمنحه لذة اكتشاف مدى عذابها، وستعمل بالتالي على الوفاء بذلك.

وصلا الى وجهتهما في وقت متأخر من بعد الظهر، فارتمت روزاليا على ركبتيها دون خجل او حياء. . . وغير عابئة بالحشرات والزواحف الكبيرة والصغيرة التي كانت تسرح وتمرح داخل ذلك الكهف الفسيح. تجاهل محنتها وبؤسها بصورة تامة، وابتسم بارتياح شديد لدى رؤيته في احدى الزوايا كمية من المؤن تكفي بضعة أشخاص لأيام عديدة. وعندما اختفى في عمق الكهف ولم تعد تسمع وقع قدميه، تأكد لها ان ثمة نفقاً يربط بين كهفين او اكثر. لا بد اذن من انها منطقة تعج بالكهوف، التي تتصل معظمها بأنفاق أخرى وبذلك تمنح الأشخاص الذين يعرفون طبيعتها جيدا حرية التنقل بأمان وطمأنينة.

غاب عنها فترة طويلة، كانت ترتجف في نهايتها تعباً وبرداً. شاهدها لدى عودته تحضن ركبتيها وتضع رأسها عليهما، طلباً لبعض الدفء والراحة، فقال لها:

ـ سأشعل ناراً.

نظرت اليه بشيء من الاستغراب واللهفة، ثم وجهت اليه سؤالا لم تكتشف مدى سذاجته في مثل هذه الظروف بالذات. . . الا بعدما انتهت من توجيهه. قالت له:

ـ الا يشكل ذلك خطراً، لأن الدخان سيكشف عن وجود هذا الكهف؟

لاحظ الرجل ارتباكها بعد الانتهاء من كلامها، فقال لها مهنئاً بلهجة تقل سخرية عن اسلوبه المعتاد:

ـ انت حقاً، يا آنسة، أفضل شخص يمكن اختطافه. وقد يحملني اهتمامك هذا على الظن بأنك لا تريدين التحرر من الأسر!

احمرت وجنتاها خجلا وحياء، وسارعت الى نفي التهمة بالقول:

ـ طبعاً أريد ذلك، وبأسرع وقت ممكن، ولكنني لم أكن أفكر بنفسي.

ـ اوه! وهل امر اكتشافي يقلقك الى هذه الدرجة؟

ـ لا. . . بالتأكيد لا. . . ولكنني أكره العنف واشمئز منه! لقد اعترفت بأنك تنوي استدراج جدي الى هذه المناطق، كي يقضي عليه رفاقك المتعطشون الى الدماء. الا ان النتيجة قد تأتي عكس ذلك، وتؤدي هذه العملية الى مقتلك أنت. أليست هناك وسيلة أخرى؟ ألا يمكنكما، انت وجدي، التوصل الى حل وسط؟

جحظت عيناه غضباً وحنقاً، وصرخ بها قائلا بحدة بالغة:

ـ أي حل وسط تتحدثين عنه، يا هذه؟ أنت تطلبين مني السعي الى اجراء مصالحة، مع رجل تقضي على جميع الذكور في عائلتي؟ لا، لن يتم ذلك اطلاقاً. . . ولن أقبل أبداً بالتخلي عن دعمي لأولئك الذين يحاربون الظلم والطغيان! من الطبيعي انني أريد لنفسي الطمأنينة والسكينة، والعيش بهدوء وأمان وراحة بال. ومن المؤكد ايضا انني لا أنوي تمضية بقية حياتي، وأنا أتعذب بفكرة الانتقام وأكتوي بنارها. أليس هذا وحده سبباً كافياً لانهاء مهمتي بالسرعة القصوى، وافساح المجال أمام عدالة الثأر لتأخذ مجراها؟ لن تشعر نفسي بالراحة التامة، يا آنسة، الا بعد وضع حد نهائي لحكم الرعب والطغيان الذي يفرضه جدك على أهلي وصحبي منذ أكثر من ثلاثين عاماً!

حل الظلام بسرعة، فاختار الرجل أبعد نقطة داخل الكهف وأشعل

ناراً قوية للتدفئة والانارة. لاحظت روزاليا ان الضوء لا يتسرب الى الخارج، بسبب تلك الصخرة الكبيرة التي اقامتها الطبيعة امام مدخل الكهف... وكأنها تريد حجبه عن أعين الانسان والحيوان. احست بشيء من الراحة الجسدية والنفسية، وهي تنعم بالدفء وبوجبة الطعام التي لم تكن تحلم بها... والمؤلفة من نصف دجاجة مشوية وبعض الخضار الطازجة.

كان يجلس على بعد خطوات قليلة منها، فراحت تتأمل وجهه الوسيم القاسي وتحاول تخيّل ما يجول في رأسه وافكاره. رفع وجهه فجأة نحوها، فانتبه الى انها تحدق به. ارتبكت كثيراً... ولكن عينيها ظلتا جامدتين، بسبب نظرة معينة لم تفهم مغزاها... ولم تدم أكثر من ثانية واحدة. هل تصورت ان نظراته وملامحه اتسمت في تلك اللحظة الوجيزة بالرقة والنعومة، وبأن نصف ابتسامة حقيقية ظهرت على شفتيه كدليل على حلول الصداقة محل العداوة؟ سألها بلهجة قاسية، بددت أوهامها وأعادتها الى عالم الحقيقة المؤلمة.

- كم تبلغين من العمر، يا آنسة؟ أسألك ذلك، لانك تبدين في هذه اللحظات كفتاة صغيرة ربطت شعرها وراء رأسها وبدأت تشعر بالنعاس الشديد... حتى في مثل هذه الساعة المبكرة.

أجابته بانفعال وحدة، كمراهقة تسعى جاهدة الى التظاهر ببلوغ سن الرشد:

- أنا في الثانية والعشرين، يا سيد ديابولو!

- قال احد الحكماء مرة ان النبتة في بعض الأحيان تورق ولا تزهر، وانها في احيان اخرى تزهر ولا تثمر. انت تحيرينني، يا فتاة! فهل انت نبتة صغيرة منطوية على نفسها ولم تتفتح براعمها بعد، أم انك أصبحت نبتة مثمرة؟

أحرجها هذا التشكك الوقح بعذريتها، فاحمرّ خداها خجلا وحياء. بحثت عن الكلمات المناسبة للرد عليه، ولكنه مضى القول وكأنه يفكر بصوت عال... او يتحدث الى نفسه:

- قيل لي ان الشابة البريطانية تعتقد اعتقاداً راسخاً، بحرية الحصول على اكبر عدد ممكن من العلاقات المتنوعة والمختلفة. وافترض بالتالي انها

تعتبر نفسها فتاة متحررة، وماهرة جداً في العلاقات. ومع ذلك، فأنا لا أحب هذا النوع من الفتيات... ولا أقبل بأي منهن شريكة لي. انا اعتبر ممارسة الحب تصرفاً خاصاً جداً وأمراً بالغ الجدية، لا سلعة تعرض بصورة علنية وتنتقل من يد الى اخرى. ولهذا السبب فاني أتوقع من الفتاة التي سأختارها زوجة لي، ان تنتظر مني أنا دون سواي ارشادها وتعليمها. هل تعرفين انه كلما ازدادت المرأة خبرة ومهارة، ازدادت الصعوبة في ايجادها الشريك المناسب؟ نعم، هذه هي الحقيقة المجردة التي لا غبار عليها. واغرب ما في الأمر اصرار هذه المرأة التي تسمي نفسها متحررة وماهرة، على ان تكون لعبة في يد الرجل... يهيمن عليها ويلهو بها.

اقترب منها فجأة، وقال لها بلهجة ارعبتها بشكل مذهل:

- اعترفي، يا آنسة، بأنك تشعرين في قرارة نفسك برغبة جامحة لكي يمسك رجل بشعرك ويجرك الى عالمه!

شعرت روزاليا بأن سلفاتوري ديابولو هو الشيطان بعينه، فاقشعر جسمها وتجمد الدم في عروقها. ولكنها فوجئت بأنها ظلت محافظة على رباطة جأشها، وبدت هادئة الأعصاب وكأنها غير مكترثة بتلميحاته وتهديداته الضمنية. ابتسم فجأة، وقال لها بصوت ينم عن خيبة أمل واستياء بالغين:

- حان وقت النوم، يا آنسة.

فتحت الكيس الصوفي الذي ستنام فيه، كما يفعل الكشافة في مخيماتهم، وقالت له:

- تصبح... تصبح على خير.

وما ان أدخلت جسمها حتى العنق في ذلك الكيس الكبير، حتى وجدت نفسها تردد له جملتها المعتادة في مثل هذا الوقت:

- أتمنى لك... أحلاماً سعيدة!

٨ـ مشاعر تشبه الغيرة

أغمضت روزاليا عينيها بحذر شديد، وكانت تفتحهما لدى سماعها أضعف صوت أو أدنى حركة من الرجل الجالس على مدخل الكهف. . . أشار الى البندقية السريعة الطلقات التي يصوبها نحو الخارج، وقال موضحاً سبب وجودها:

ـ ذكر لي بعض الاصدقاء أن ثمة كلاباً مسعورة تتجول على هذه السفوح، كما ان الثعالب المتواجدة هنا بكثرة تشكل خطراً دائماً.

يا له من رجل غريب الاطوار وكثير التناقضات! ساعة يكون بارداً كالجليد، وفي لحظة غير متوقعة يتحول الى نار متأججة. . . مثل بركان اتنا، الذي سلطته الطبيعة فوق رؤوس أهالي صقلية منذ زمن بعيد. بدا كأنه غير مرتاح الى المهمة التي انيطت به. . . كأن ثمة شخصيتين مختلفتين

تتصارعان في داخله. . . بحيث يهددها أحياناً بعواقب وخيمة مرعبة ولا ينفذ شيئاً منها، كما أنه في أحيان أخرى لا يتصرّف بالرقة والنعومة اللتين بدأت تظن أنه يتحلّى بهما!

لم تتمكّن روزاليا من المضي في تحليل شخصية خاطفها ونفسيته، لأنها شاهدت فجأة انساناً ينحني فوق رأس سلفاتوري ويهمس في اذنه بعصبية ظاهرة جملاً سريعة ومتلاحقة. لم تفهم شيئاً بالطبع، ولكنها لاحظت ترداد كلمة طبيب بكثرة ملفتة للانتباه. لا شك اذن في أن أحد الاشخاص بحاجة ماسة الى طبيب!

ـ هل أنت مستيقظة؟

ردت عليه بالايجاب ثم رفعت رأسها قليلاً، فتبين لها ان الشخص الذي تصورته رجلاً قصير القامة لم يكن الاّ صبياً في حوالى الثالثة عشرة من عمره.

ـ ارتدي ثيابك اذن، لأننا سننزل فوراً الى القرية.

ـ ماذا؟ في مثل هذا الوقت المتأخر؟

أجابها بشيء من الحدة والعصبية، قائلا:

ـ نعم! كم من الوقت ستحتاجين لارتداء ملابسك؟

ـ انا جاهزة، لأنني لم أخلع ثيابي.

فوجىء بجوابها، فصمت ثم سارع الى القول:

ـ حسناً، حسناً! هيا بنا حالاً، وحاولي الاّ تحدثي أي ضجة على الاطلاق. لقد أرسل جدك عدداً كبيراً من الرجال لتعقب اثرنا، ولذلك فمن الضروري جداً تجنّب اي صدامات متسرعة وغير مخطط لها. . . وقد تؤدي الى ما لا تحمد عقباه. أريد عنقك الابيض الناعم الجميل أن يظل سليماً، على الأقل الى ان يلبي جدك مطالبي.

أوه! انه يسعى أيضاً الى المال، بقدر سعيه وراء الثأر والانتقام! تألمت كثيراً، عندما تأكد لها أنها كانت واهمة في تحليلها لامكانية وجود بعض الرقة والحنان في قلب هذا الرجل. كادت تتعثّر مرات عديدة، وهي تتبعه في ممرات مظلمة تربط بين كهف وآخر. . . تصعد حيناً وتهبط أحياناً. وبعد فترة قصيرة نسبياً، انتبهت روزاليا الى انهم أصبحوا خارج تلك الممرات والانفاق. حدقت نحو الوادي السحيق، فلاحظت بصعوبة مجموعة من

البيوت الصغيرة تفصل بينها طريق واحدة. كانت جميع المنازل غارقة في الظلام، الا أن مصباحاً صغيراً كان يلمع بصورة سريعة متقطعة من نافذة أحدها. ثلاث مرات متتالية يعقبها توقف لبضع لحظات، ثم يعود الضوء الى مراته الثلاث. تحدث سلفاتوري مع مرافقه الصغير، فهز الصبي رأسه وانطلق كالسهم نحو القرية. وبعد حوالى خمس دقائق، اخترق الصمت المخيم بكثافة على تلك المنطقة صوت عصفور، فأمسك سلفاتوري بمرفق روزاليا وقال لها:

- كل شيء على ما يرام، وقد أصبحت طريقنا الآن آمنة. هيا بنا!
- لماذا؟

أخرسها بحدة، قائلاً لها بصوت كفحيح الافاعي:

- سأشرح لك الموضوع في وقت لاحق. سيري الآن قربي، والتزمي جانب الصمت التام.

أطاعته دون أي اعتراض أو مناقشة، وراحت تقفز وراءه في محاولة يائسة للتخفيف من الآلام المبرحة التي حلّت بقدميها. وعندما ارتطمت ركبتها بحافة صخرة نائتة، أحست بوجع شديد ولكنها أرغمت نفسها على عدم الصراخ أو التفوّه بكلمة واحدة. وعلى الرغم من الجهود الجبارة التي بذلتها لاخفاء ضعفها وألمها، الا أن الدموع كانت تنهمر بغزارة من عينيها لدى وصولها الى البيت الصغير الذي يقصدانه.

جففت دموعها وأخذت تتأمل النوافذ المغلقة، فيما اقترب سلفاتوري من الباب الخشبي الصلب ونقره باصبعه ثلاث مرات متتالية. سمعت روزاليا بعد هنيهة صوت باب داخلي يفتح، وشاهدت عبر فتحة صغيرة في الباب عينين تتفحصانها بدقة وعناية. ثم فتح الباب بطريقة اضطرا معها الى الدخول بشكل جانبي، قبل اغلاقه مجدداً واحكام اقفاله. وما ان دخلا الى قاعة الجلوس الصغيرة، حتى تكرّرت العملية ذاتها بالنسبة للباب الداخلي.

رأت روزاليا، على ضوء المصباح الضعيف، سريراً في احدى الزوايا عليه امرأة عجوز يبدو عليها الوهن والاعياء. تطلّعت المرأة المريضة نحو سلفاتوري، فلاحظت روزاليا مدى الحب العميق الذي تكنه له. ولكنها أحست بمزيج من السعادة والتحفظ في نبرة صوتها، عندما سمعتها

تقول له:

- توتو! كانوا مخطئين تماماً في ارسال الصبي لاحضارك الى هنا، وقد توسلت اليهم الا يفعلوا ذلك. يجب ان تذهب فوراً! الا تعرف مدى الخطر الذي تواجهه هنا؟
- هراء، يا عمتي جيوسيبينا! أنت تعرفين جيداً انني كنت سأغضب كثيراً، لو انهم لم يبلغوني عن مرضك.

جلس على حافة سريرها وأمسك بمعصمها، ثم تابع كلامه قائلاً:

- الآن، أريدك ان تصفي لي تماماً كيف تشعرين.

حاولت السيدة العجوز أن تقلل كثيراً من أهمية مرضها، على الرغم من ملامح الألم والعذاب التي تظهر بوضوح على وجهها المتعب والكثير التجاعيد. استغربت روزاليا نوعية الاسئلة التي يوجهها سلفاتوري لمعرفة الداء وأسبابه، وكذلك كيفية انتقال يده وأصابعه برقة وحنان لتحديد مصدر الألم واكتشاف مداه. ومع انه بدا عابس الوجه مقطب الحاجبين عندما اعاد الغطاء فوق جسم السيدة العجوز، الا انه تعمّد ادخال الطمأنينة الى نفسها بالقول:

- لست بحاجة الا لبضعة أيام من الراحة والعناية، يا عمتي.

ثم اشار الى قنينة قرب رأسها، ومضى الى القول:

- أريدك أن تأخذي هذا الدواء، وسأجد لك في الصباح من يهتم بك بطريقة جيدة. وفي غضون ذلك، حاولي ان تنامي وترتاحي... وسأكون في مكان قريب، اذا شعرت انك بحاجة الي.

أخذت جرعة من ذلك الدواء وأعدت نفسها للنوم، فيما كانت نظراتها تشع ببريق السرور والارتياح. ظل سلفاتوري قربها حتى تأكد أنها تغط في نوم عميق، ثم استدار نحو روزاليا التي جلست على مقعد خشبي قاس ساعدها قليلاً على التخفيف من اعيائها الشديد، وقال لها:

- يسرني انك وجدت هذا المقعد لترتاحي عليه.

همّت بالنهوض، فقال لها على الفور:

- لا... أريدك ان تظلي حيث أنت، فالعمة جيوسيبينا لا يمكن ان تترك وحدها. سنبقى هنا حتى الصباح.

فركت عينيها لتطرد النعاس الثقيل وتبدو اكثر تحفزاً وانتباهاً، ثم سألته

باهتمام جدّي:
- ما هي مشكلتها بالضبط؟
- انها تعاني من داء مزمن يعذبها ويقض مضجعها منذ سنوات عديدة، لأنه لم تجر لها عملية جراحية في الوقت المناسب.
سألته عن سبب ذلك فازعجتها نظرته القاسية الحاقدة التي وجهها اليها، وكأنه يحمّلها مسؤولية محنة السيدة العجوز بطريقة أو بأخرى. ثم قال لها:
- لأنه لم يكن هناك أي طبيب لتشخيص المرض... ولم يكن ثمة أحد يهتم كفاية بصحة أبناء الجبال ورعايتهم الاجتماعية! وأكثر من ذلك كله، كما قيل لي مرة بأسلوب فلسفي جاف يتميّز به أهلي وصحبي، لان المال قليل جداً ويكاد لا يكفي الاحياء وأصحاء الاجسام... ولا يجوز بالتالي اهداره على الذين سيموتون عاجلاً أم آجلاً.
شهقت بصوت عال، بسبب الصدمة النفسية التي شعرت بها، فقال لها بحنق شديد وسخرية تتسم بالمرارة والألم:
- آه، نعم، لك كل الحق بأن تشعري بالاشمئزاز... يا حفيدة الكونت! ففي بريطانيا، التي اختارها والدك موطناً لكم، تقتطع الدولة نسبة معينة من المداخيل والارباح... لتستخدمها، من بين أمور أخرى، في تأمين الرعاية الطبية المجانية لكل من يحتاج اليها. أما في موطني أنا، فثمة رجل انتهازي استغلالي يعتبر أن من حقه المكتسب جمع الثروات الطائلة عن طريق استعباد الفلاحين الفقراء والعمال المعدمين... ليبني نافورة جديدة في قلعته، بهدف تخليد اسم أصبح رمزاً وعنواناً للوحشية والأنانية والجشع. ولكن... أي جدوى من هذا الكلام كله، وأين الفائدة منه!
وقف فجأة، ثم قال لها بلهجة أقل حدة... ولكنها تحمل تهديداً واضحاً:
- سأتركك الآن وحدك لبعض الوقت. لا تكوني غبية وتحاولي الفرار، فسوف تجدين نفسك وحيدة في هذه الجبال وتحت رحمة الكلاب المسعورة والثعالب... والأفاعي.
ارتجف جسمها خوفاً من الفكرة الرهيبة وحدها، فحملت مقعدها

الثقيل ووضعته قرب سرير السيدة العجوز... ذلك أن وجودها، حتى على الرغم من مرضها ونومها، يطمئن النفس ويريح الاعصاب الى حد ما. هزت رأسها حزناً وألماً، وهي تقارن بين وحشية خاطفها وتلك الحيوانات البرية الشرسة. ألن تكون بين تلك الحيوانات التي لا تشكل الاّ تهديداً جسدياً، اكثر اماناً من وجودها مع هذا الرجل الذي تضطر الى تحمّل تعذيبه المعنوي والنفسي لها... اضافة الى احتمال تصرفه في أي لحظة كاسوأ من اسوأ تلك الحيوانات؟ أحست فجأة بأنها لم تعد قادرة على مقاومة النعاس الشديد، فقامت بمناورة مرهقة... تمكنت على أثرها من ابقاء جسمها على المقعد، ووضع رأسها وذراعها قرب قدمي السيدة المريضة. استيقظت بعد حوالي ساعتين، عندما شعرت بالسيدة العجوز تتحرك في سريرها. جلست روزاليا في مقعدها، ثم سألت ربة البيت بصوت رقيق ناعم:
- كيف تشعرين الآن؟
- أفضل بكثير. أين توتو؟
رددت روزاليا الاسم باستغراب، قبل ان تتذكر أنها سمعت السيدة تستخدمه لدى وصولها للترحيب بقريبها. لا شك اذن في انه اسم الدلال، الذي يستعمله المقربون جداً من سلفاتوري أثناء مناداته أو التحدث عنه. اجابتها بسرعة:
- ليس بعيداً من هنا. هل تريدين أن احاول ايجاده؟
وضعت السيدة المريضة يدها الضعيفة على ذراع روزاليا، وقالت:
- لا... لا، فأنا مرتاحة ولست بحاجة اليه الآن. كل ما في الأمر أنني أريد الاطمئنان على سلامته.
- ربما ذهب لاحضار طبيب.
حدقت بها المرأة العجوز بذهول واضح، وقالت:
- طبيب؟ ولكن توتو هو طبيب... وهو أذكى وأفضل طبيب في العالم! ألم تعرفي أنه طبيب؟
حدقت فيها روزاليا باستغراب مماثل، ولم تتمكن على الفور من استيعاب ذلك الكلام. وعندما تأكد لها بأنها لم تكن تحلم، ابتسمت لجارتها بشكل يوحي بأنها كانت تمازحها. فقد تذكرت أشياء عدة تثبت فعلاً انه

طبيب... مهما استخدام الصبي هذا اللقب باستمرار لدى التحدث معه، والخبرة الواضحة في أسئلة سيلفاتوري العلمية الذكية للسيدة المريضة، وأسلوب فحصه المهني والدقيق لها. وأهم من ذلك، امتناعه المحير عن القيام شخصياً بتنفيذ عملية الثأر والانتقام حتى النهاية... والاكتفاء بتسليم جدها الى جلاديه. أليس من الطبيعي في مجتمع كهذا أنه، كآخر رجل في عائلة لاقى فيها جميع الذكور حتفهم بناء على أوامر جدها، سوف يسعى بنفسه لقتل القاتل؟ ولكنه طبيب اقسم على تكريس حياته لانقاذ الناس، لا الى قتلهم. وهذا يفسر الصراع النفسي الذي يتفاعل في داخله... فهو يشعر برغبة جامحة لأخذ الثأر بيده، ولكن رسالته تمنعه من القيام بذلك.

لقد سمعت بالتأكيد عن توريدو؟ ابني توريدو؟

لاحظت روزاليا أن السيدة العجوز تريد التحدّث معها، على امل تناسي عذابها وآلامها، فهزت رأسها ايجاباً لتشجيع المرأة المريضة على متابعة الكلام. تحولت ملامح التعب والارهاق في الوجه الحزين الى اشراقة فخر واعتزاز، وهي تتابع حديثها بالقول:

ـ لم يكن توريدو زعيم عصابة من الاشرار وقطاع الطرق، كما يريدك البعض ان تتصوري! ولكنه كان شهماً شجاعاً، متفانياً في الاخلاص، مفرطاً في رقته وحنانه متديناً جداً، ووسيماً للغاية. كانت قلوب الفتيات جميعهن تخفق اعجاباً وهياماً، كلما تطلعت أي منهن الى عينيه الساحرتين وابتسامته الخلابة. كان خطأه الوحيد كرهه الشديد للظلم والاستبداد، واعجابه القوي بالنبل والكرم والشهامة. كان أصغر ابنائي واكثرهم وسامة وجمالاً، وتوتو هو الشخص الوحيد الذي يذكرني به كثيراً. فهو يشبه ابني من حيث الملامح والتصرفات، أكثر مما يشبه والده.

ظلت روزاليا صامتة، واكتفت بهز رأسها وتوجيه ابتسامة خفيفة كدليل ضعيف واه على الموافقة. أحست العجوز بأن ثمة أمراً ما غير طبيعي، فسألتها فجأة وبلهجة حادة:

ـ من أنت؟ من المؤكد أنك تعرفين توتو جيداً، والاّ لما كان أحضرك الى هنا.

لم تجرؤ روزاليا على ذكر اسم روسيني الذي يكرهه الجميع في هذه

المنطقة، فاختارت الكذب على التهور وقالت بارتباك:

ـ نعم... أعرفه جيداً، وتربط بيننا... صداقة قوية!

اكتفت العجوز المريضة بهذا القدر من الاستجواب وقالت لها:

ـ اذن، فمن المؤكد ان توتو اخبرك كيف أمضى ابني حياته القصيرة مطارداً في هذه الجبال ومحكوماً عليه بالقتل... بسبب مخالفة تافهة كان المئات يرتكبونها في ذلك الوقت.

أحست روزاليا بأن حب الاستطلاع يدفعها الى معرفة المزيد، فقالت لجارتها التي بدت على أتم الاستعداد للردّ على كافة الاستفسارات:

ـ أخبريني ماذا حدث بالضبط، فلربما نسي... توتو... بعض التفاصيل المعينة اثناء حديثه لي عما جرى.

ـ حسناً! أصبحت معظم المواد الغذائية في نهاية الحرب العالمية وبعدها، قليلة لا بل نادرة... وبخاصة لأن الجنود الأميركيين بالذات كانوا قادرين على دفع أي ثمن يطلب منهم للحصول على المواد الضئيلة المتوافرة في الاسواق. ارتفعت الاسعار بصورة جنونية، بحيث لم نعد قادرين اطلاقاً على تحملها. وعندما تزايدت العمليات الوسخة التي كان أثرياء الحرب يقومون بها، كتجميع كميات هائلة من القمح والدقيق والسكر لبيعها في السوق السوداء، صدر قانون يحرم نقل أي مواد غذائية من منطقة الى أخرى وراحت دوريات الشرطة العسكرية تفتش كل شخص يخرج من قريته او يعود اليها، بحثاً عن أي مواد مهربة. ولكن الأغنياء لم يعانوا كثيراً من جراء تطبيق القانون، بسبب الرشاوى التي كانوا يدفعونها لرجال الشرطة... المتلهفين لقبضها والمستعدين للقيام بأي شيء لقاء المال. أما الفقراء المساكين الذين تمكنوا بشق النفس من شراء بعض المواد الغذائية وجازفوا بتهريبها لمجرد اطعام أولادهم المتضورين جوعاً، ولم يقدروا بعد ذلك على دفع الرشوة، فكانوا يسجنون ويعذبون... بعد أن يصادر منهم رجال الشرطة مشترياتهم لبيعها سراً الى جنود الحلفاء.

تنهدت السيدة العجوز بألم، ومضت الى القول:

ـ لم يتحمل ابني توريدو رؤية أطفال قريتنا يموتون من الجوع، فذهب وشقيقه الأكبر الى احدى القرى البعيدة واقنعا مزارعاً صديقاً ببيعهما كيسين من القمح. حملا الكيسين وسارا مسافة شاسعة في مناطق جبلية وعرة

للوصول الى هنا، ولكن احدى الدوريات المنتشرة في كافة انحاء المنطقة ألقت القبض عليهما. ومع انه كان بحوزتهما مبلغ قليل من المال، الاّ ان كرامتهما وعزة نفسهما ابتا عليهما اللجوء الى الرشوة. أخذ الجنود منهما بطاقتي هويتهما وصادروا كيسي القمح، ثم هددوهما بالضرب بأعقاب البنادق ان لم يكشفا عن اسم الشخص الذي باعهما القمح. رفضا بالطبع خيانة صديقهما، وراحا يشرحان عوضاً عن ذلك الظروف الصعبة لاطفال قريتنا... ويناشدان الجنود السماح لهما بمتابعة طريقهما لايصال القمح الى من هم بحاجة ماسة اليه. ظهر فجأة رجل ومعه بغل محمل بثلاثة أكياس من القمح، فهجم ثلاثة من الجنود عليه... فيما ظل رابعهم واقفاً قرب الشقيقين الأعزلين وهو يصوب عليهما بندقيته السريعة الطلقات. وبشجاعة ورشاقة منقطعتي النظير، قفز توريدو باتجاه الجندي... موجهاً احدى قدميه الى صدر الرجل والاخرى الى البندقية، ثم ركض وشقيقه نحو الغابة القريبة. أطلق الجنود النار عليهما فاصيبا بجراح مختلفة، ولكنهما تمكنا مع ذلك من الوصول الى منطقة الكهوف العالية... التي أصبحت بعد ذلك ملاذهما وملجأهما الدائم.

نظرت العجوز الى روزالبا بعينين حزينتين، كأنها تتوسلان تفهّمها وتعاطفها، ثم مضت الى القول:

- كان توريدو آنذاك فتى مراهقاً متهوراً، اشتعل قلبه غضباً وسخطاً بسبب المعاملة السيئة المهينة التي يتعرض لها المزارعون والفلاحون الشرفاء. ولكنه كان ذا طبيعة حنونة ورقيقة جداً، وهذا ما دفع بوالد توتو الى ان يضع زوجته الحامل في حماية ابن عمه وتحت رعايته.

كادت الدموع تنهمر من عيني روزالبا حزناً وتأثراً، فوجهت الى السيدة العجوز سؤالاً كأنه يهدف الى ايجاد المزيد من الحجج والاثباتات التي تؤيد رغبة عائلة ديابولو في الانتقام. قالت لها:

- كانا يهربان من شخص ما يريد الحاق الاذى بهما؟

- طبعاً! من الكونت روسيني.

لاحظت روزالبا ان ربة البيت أجابتها بعفوية ودون تردد، فشعرت بأنها مضطرة لتصديقها. ومع أنها لم تكن راغبة في ارهاق المرأة المريضة، الاّ انها أرادت معرفة الحقيقة... وبخاصة لأن هذا الحديث هو فرصتها الوحيدة

لتحقيق ذلك. سألتها بهدوء:

- لماذا أراد رجل متعجرف وواسع الثراء والنفوذ مثل الكونت، أن يزوج ابنه بفتاة لم تكن اكثر من مجرد فتاة عادية فقيرة! الم يكن مناسباً له مثلاً، اختيار ابنة احدى العائلات الثرية والعريقة؟

- كان الثعبان مستاء من نساء طبقته الغنية ومجتمعه المخملي، ويعتبرهن غير صالحات للانجاب... وذلك لأن زوجته لم تكن قادرة على منحه اكثر من طفلين فقط. اما الفتاة القروية التي تعيش في هذه الجبال، فهي قوية وصحيحة الجسم... حتى على الرغم من عدم حصولها طوال حياتها على جزء يسير من الرعاية الصحية والاجتماعية، التي تتمتع بها فتاة المدن. وعليه، فليس من غير المألوف اطلاقاً هنا أن تلد المرأة أربعة أو خمسة عشر طفلاً... وتظل قادرة على مساعدة زوجها في مختلف أعماله اليومية الشاقة.

- هل تعنين أن الكونت اختار ماريا كزوجة لابنه، لمجرد قدرتها على انجاب عدد كبير من الاولاد؟

- وهل يمكنك تصور أي سبب آخر...؟ على أي حال... كانت ماريا مأخوذة كلياً بفكرة انها ستصبح يوماً ما الكونتيسة روسيني، فرفضت ان تصدق ما حدث لها أو تذعن للأمر الواقع!

تنهدت العجوز بندم وألم، ثم قالت بصوت حزين ضعيف:

- يا ليتها صدقت أن الهدف من اختيارها، لم يكن الاّ لانجاب الاطفال! فلو فعلت ذلك، لما كنا اليوم نبكي مثل هذا العدد الكبير من خيرة شبابنا وابنائنا!

- أنت تعترفين اذن، بأن ماريا لم تكن غير مخطئة بصورة تامة؟

جاءها الجواب من ناحية الباب، عندما قال لها سلفاتوري ديابولو بصوت قوي قاس:

- هل أنت بدون ضمير اطلاقاً، لتوقظي هذه السيدة المريضة وتزعجيها؟

نظرت اليه المرأة العجوز بعينين تتوسلان الصفح وهدوء الاعصاب، وقالت:

- أنا المخطئة، يا توتو. صديقتك شابة لطيفة وحساسة جداً، وقد

تحمّلت بكل رحابة صدر ثرثرة امرأة عجوز وكلامها الفارغ. كنت سعيدة بوجودها معي، لأنني غير قادرة على النوم.

انبّها بلهجة رقيقة حنونة، قائلاً:

ـ اذن سأرغمك على ذلك.

أخرج من كيسه علبة صغيرة تحتوي على كمية من الحبوب، وأخذ منها حبتين. ثم ملأ كوباً من الماء ووضع ذراعه تحت كتفيها، قائلاً لها وهو يرفعها برفق ومحبة:

ـ هيا، يا عمتي، ابتلعي هاتين الحبتين.

رقص قلب روزاليا فرحاً، عندما خطرت ببالها فكرة جريئة قد تساعدها على الفرار من خاطفها. تأملت بدقة كافة التفاصيل الخاصة بتلك العلبة، والمكان الذي وضعها فيها داخل كيسه الكبير. ستستخدم بعض هذه الحبوب المنومة في الوقت المناسب، لأنها أملها الوحيد في الخلاص من هذا الرجل... الذي لا يسعى الى الانتقام فقط، بل أيضاً الى ملء جيوبه بأموال جدها!

لم تشأ روزاليا أن تسأل نفسها عن سبب تألمها من رغبته في الحصول على فدية مالية، في حين أنها بدأت تجد له بعض المبررات للكره الشديد الذي يكنه لجدها! وأبت أيضاً ان تحاول تفسير تلك الوخزة الموجعة الشبيهة بمشاعر الغيرة، التي أحست بها عندما أمسك بيد المرأة العجوز... وطبع قبلة خفيفة على خدها!

٩ـ اللحظة السحرية

حاولت روزاليا تجنب هذا العذاب اليومي، الذي يفرضه عليها منذ أسبوع كامل، ولكنه أمسك بقدميها وصرخ بها قائلاً:

ـ ضعيها في الماء، ولا تتحركي!

أطاعته بتردد واضح، فبدأ على الفور بتنظيفهما من بقايا القروح التي أصيبتا بها... عندما ركضت وراءه ليلة استدعائه الى بيت عمته. تذكرت كيف ارتمت على مقعدها فجر ذلك اليوم وهي تصرخ من الألم، بمجرد نهوضها والوقوف على قدميها. وتذكرت أيضاً العذاب الذي تشعر به منذ ذلك الحين، كلّما لامست يداه قدميها لتنظيفهما ومداواتهما. انهى الطبيب عمله، فوقف وقال لها بارتياح ظاهر:

ـ أتصور انك لن تشعري بعد اليوم بأي أوجاع في قدميك، فقد

شفيتا تماماً.

أكدت له بامتنان صحة كلامه، وشكرته على كل ما قام به تجاهها. قال لها ببرودة تكشف الى حد ما عن اعتراف ضمني بالمسؤولية:

ـ معظم الفتيات كن سيتهمنني بأن قصر نظري هو الذي أدى، في المقام الأول، الى وقوع هذه المشكلة.

حبست روزاليا أنفاسها دهشة، لدى سماعها هذه الجملة التي تصل الى حد الاطراء. وعندما التفت سلفاتوري نحوها وتلاقت نظراتهما، شعرت وكأن الزمن توقف الى ما لا نهاية في تلك اللحظة الخاطفة. الخطر محدق بهما من كل حدب وصوب... رجال مسلحون ومتعطشون للدماء يجوبون الوادي والسفوح، ويقلقون راحة أبناء القرى المشتبه في أنهم متعاطفون مع ديابولو ومع ذلك... فقد نسيت روزاليا تماماً في هذه اللحظة الوجيزة السحرية سبب وجودها في هذا الكهف، وأحست بأنها... ولدت من جديد. ثم... أفاقا معاً من ذهولها وغيبوبتها، ولكن بطريقتين مختلفتين جداً. ففي حين كانت روزاليا سابحة في بحر الخيال وأحلام اليقظة، سمعته يقول لها بازدراء... قطع به ذلك الخيط الرفيع من العلاقة الحميمة القصيرة:

ـ حان الوقت لزيارة العمة جيوسينا.

أرادت أن تعرف المزيد عنه، فتجاهلت لهجته القاسية وسألته ببرودة مصطنعة:

ـ كيف تمكّن صبي يتيم، ولد فقيراً وعاش مشرداً، من دراسة الطب؟ ألم تقل بنفسك ان المال كان نادراً بصورة دائمة؟ أليست الدراسة الجامعية، وما يليها من مراحل التخصص، باهظة التكاليف؟

لم يتضايق اطلاقاً من اسئلتها، التي تحاول من خلالها معرفة أمور شخصية جداً عنه، بل بدا مسروراً لتمكنه من التحدث عن هذا الموضوع. قال لها:

ـ كنت سعيد الحظ، لوجود بعض الأثرياء المحبين والمخلصين في الولايات المتحدة. فقد شاءت الظروف أن يهاجر الشقيق الأكبر لوالدي قبل اندلاع الحرب، ويتحول خلال فترة قصيرة نسبياً الى رجل أعمال ناجح. استدعاني عمي عندما بلغت العاشرة من عمري، وبقيت معه حتى

تخرجي وحصولي على كافة شهادات التخصص التي كنت أطمح اليها. وعندها... شعرت بأني مضطر للعودة الى وطني.

ـ ألم تعجبك الولايات المتحدة؟

تردد قليلاً، ثم قال لها بهدوء لم تكن تتوقعه:

ـ يحلم كل فلاح صقلي بالهجرة الى هناك، حيث الثروة والصداقة والمساواة والعدالة و...

شجعته على متابعة كلامه، بالقول:

ـ ومع ذلك...

استدار نحوها وهو يوجه اليها ابتسامة جعلت قلبها يتوقف عن الخفقان، ثم قال لها:

ـ ومع ذلك، فقد كنت أمضي أوقات الفراغ القصيرة والمتباعدة... في حدائق الحيوانات. شعرت بتعاطف قوي مع تلك المخلوقات التي أبعدت عن بعضها ووضعت في أقفاص حديدية... محرومة من حريتها وأدغالها!

سارا الى القرية تحت جنح الظلام، فدفعها سكون الليل الى تركيز تفكيرها بكامله على الرجل الذي يسير أمامها بخطى بطيئة للحؤول دون تعثرها أو وقوعها. تألم قلبها لدى تصورها ذلك الصبي... ابن الصخور والجبال... يشحن في سن مبكرة الى أرض غريبة... ويعاني من زجّه داخل سجون من نوع آخر، هي غرف البيوت وقاعات الجلوس... الى أن يتم تدجينه وتعليمه ومنحه في نهاية الأمر شهادة موافقة وقبول من الحضارة والمدنية! لا شك في أنه تحمل عذاباً لا يطاق، وبكى بقلب جريح ليلة بعد ليلة... وهو يشرب الحليب المجفف ويأكل اللحوم المعلبة، ويتنشق الهواء الملوث، ولا يعرف طعم النوم والراحة بسبب الضجيج والصخب!

بدت العمة جيوسينا في وضع جيد. فقد قفزت فجأة الى حافة سريرها، فور دخولها الغرفة، وقالت لقريبها:

ـ أطالبك باصرار شديد، يا توتو، بأن تسمح لي بمغادرة الفراش... وبأن تبلغ تلك الغبية جينا، التي اخترتها لي كحارس... لا بل كسجّان، بأن تحضر لي ثيابي حالاً!

ابتسم لها بمحبة وحنان، ولكنه لم يجبها حتى جس نبضها وأجرى كشفاً

طيباً عليها. قال لها، مستسلماً لرغبتها . . ولكن بلهجة توحي بأنه يفعل ذلك عن اقتناع لا عن ضعف أو اذعان:

- حسناً، يا عمتي. أنا لست متأكداً تماماً من أنك تعافيت بالشكل الذي تصورينه لي، ولكنني سأطلب من جينا أن تساعدك على ارتداء ملابسك. . . شريطة حصولي على وعد قاطع منك بعدم مغادرة مقعدك الا نادراً، وبالعودة فوراً الى فراشك بمجرد احساسك بالتعب والارهاق.

ظهر العناء جلياً في ملامح السيدة العجوز، وبدا التمرد واضحاً في عينيها الصغيرتين السوداوين. الا أنها قررت الرضوخ لأوامر الطبيب وارشاداته، قائلة:

- حسناً، يا توتو، أعدك بذلك.

ثم انتفض رأسها بشموخ وعنفوان، ومضت الى القول. . . وكأنها تصر على الاحتفاظ بالكلمة الأخيرة:

- ولكني لا أزال أظن بأن أوامرك الصارمة تتسم بالغباء والسخافة. سيتصور جميع جيراني بأنني أصبحت في المراحل الأخيرة للشيخوخة والعجز، جسدياً وعقلياً. أنا قادرة تماماً على الاعتناء بنفسي، ولا أريد أي معاملة خاصة.

قبل تأنيبها بجدية وهدوء، قائلاً:

- أعرف ذلك، يا عمتي. واذا نسيت هذا الأمر يوماً، فلا تترددي اطلاقاً في تذكيري به.

ظنت في بداية الأمر، أنه يتحدث معها بشيء من السخرية. ولكن وجهها أشرق فجأة بابتسامة حارة، ثم ضمته الى صدرها بمحبة وحنان قائلة:

- أنت شاب طيب جداً، يا توتو، مع أنك تتطرف احياناً في جرأتك ولكن. . .

نظرت بطريقة فرحة نحو روزاليا، التي تقف على بعد خطوات قليلة، واضافت قائلة:

- ولكن الجريء، وحده هو الذي يظفر عادة بقلوب الحسناوات الجميلات، كما ستوافقني على ذلك بالتأكيد صديقتك الشابة.

- صديقتي الشابة!

احمرت وجنتا روزاليا حياء، وهي تسمعه يشدد بشكل مذهل على كلمة صديقة.

- ولكنك تعرفين بالتأكيد، يا عمتي، من. . .

توقف فجأة عن اتمام جملته، وكأنه تخوف من الكشف عن هويتها. ثم هزّ كتفيه وحمل كيسه قبل ان ينهي كلامه بالقول:

- سنضطر للذهاب الآن قبل هبوب العاصفة. لا تقلقي، يا عمتي، ان لم أقم بزيارتك خلال الأيام القليلة القادمة. . . ذلك أنني سأنهمك في أعمال كثيرة.

أوقفته السيدة العجوز قائلة له، وهي تشير نحو الباب:

- قبل أن تذهبا، أود ان اعطي صديقتك هدية صغيرة. هل تسمح بانتظارها خارجاً، لأنني أريد اعطاءها الهدية على انفراد.

بدا أنه على وشك الاعتراض أو التمنع، ولكنه غيّر رأيه وتوجه نحو الباب قائلاً:

- كما ترغبين، يا عمتي، ولكنني أريدك أن تسرعي قدر الامكان.

ثم التفت نحو روزاليا، وقال لها:

- لا تشجعي عمتي على ارهاق نفسها، فهي تتحدث كما تعزف على القيثارة. . . دون توقف. . . الى أن تغرقها النشوة في موسيقى كلامها!

لم تعلق العجوز على كلامه، ولكنها أشارت نحو صندوق خشبي وقالت لروزاليا بصوت يرتعش حماسة وتلهفاً:

- اذهبي الى ذلك الصندوق، يا عزيزتي، واحضري لي منه الكيس الاخضر الصغير الموجود في الجانب الأيمن.

فعلت روزاليا كما طلب منها، وهي تشعر بالحيرة لحماسة السيدة العجوز. . . وتتوق لمعرفة محتويات الكيس. قالت لها السيدة السعيدة، فيما كانت تفتح كيسها الذي يبدو عزيزاً جداً على قلبها:

- اريدك أن تأخذي هذه الثياب، أيتها الشابة الجميلة. انني أحتفظ بها منذ ما قبل زواجي، لاعطيها لأولى بناتي. وبما أنني لم أرزق ابنة، فسوف أكون في غاية السعادة اذا قبلت بارتدائها.

شهقت روزاليا دهشة واعجاباً، عندما أخرجت السيدة العجوز فستاناً طويلاً رائع الجمال وسترة و. . . و. . .

- ارتدي هذه الثياب، يا عزيزتي، لأرى كيف تبدو عليك.

خلعت روزالبا فوراً السروال الجلدي الضيق الذي بدأت تزدريه وتشمئز منه، ثم ارتدت بسرعة الفستان الأصفر المزركش والسترة المخملية السوداء. وعلى أثر ذلك، ألقت على كتفيها الشال الحريري المطرز وربطت شعرها بمنديل يتناسب مع الثياب الرائعة لوناً وأناقة.

استدارت نحو السيدة الطيبة لتسمع تعليقها، فصرخت والدة توريدو بسرور بالغ:

- يا لجمال البراءة! يا لهذا القوام الرائع! لم يبد زينا القومي أبداً من قبل بمثل هذه الروعة. اذهبي، يا آنسة، واسألي توتو عما اذا كان لديه أي اعتراض... على أن صديقته الصغيرة هي الآن أجمل فتاة في جميع انحاء صقلية!

قبّلتها روزالبا على وجنتيها بمحبة خالصة وامتنان مخلص، ثم ركضت الى الخارج لتبحث عنه وتتباهى أمامه بثيابها الجميلة الساحرة. كانت واثقة من المعلومات التي أفادت بابتعاد مطارديها عن هذه المنطقة، فقطعت المسافة القصيرة الفاصلة بينهما وهي تقفز فرحاً وسعادة. شعر باقترابها منه لكنه لم يستدر نحوها، لأنه كان يحدق باهتمام كلي بنافذة تنبعث منها أنوار قوية وأنغام موسيقية صاخبة وأصوات غناء وضحك وطرب. سألته هامسة:

- ماذا يجري هنا؟ هل ثمة حفل زواج، أو احتفال عائلي؟

أجابها دون ان يلتفت اليها:

- بما أن يوم غد مخصص للصيام والتأمل، فانهم يقيمون الليلة حفلة ويملأون بطونهم استعداداً لمواجهة جوع الغد.

- انها تبدو حفلة رائعة.

وصلا بعد لحظات الى مدخل ذلك المنزل، الذي بدا منفصلاً بعض الشيء عن بقية منازل القرية، فخرج رجل طويل القامة ووقف أمام الباب يحدق بالشخصين القادمين. وما ان اعتاد نظره على التحول المفاجىء من النور الى الظلمة، حتى قفز نحو سلفاتوري بسعادة بالغة وصرخ قائلاً:

- توتو، يا صديقي العزيز، ادخل وانضم الينا. أنت هنا في أمان تام، فقد ابتعدت عنا منذ بعض الوقت ذئاب الكونت الجائعة... كما أننا لا

نزال محتفظين بعدد من المراقبين في كافة النقاط الاستراتيجية. وبما ان هذه قد تكون المرة الاولى التي يمكنك فيها الشعور بالراحة والاطمئنان الكاملين، فاني أتمنى عليك ان تتمتع بوقتك الى أقصى درجة... وتنسى جميع همومك ومشاكلك... ولا تتذكر الاّ أنك بين أصدقاء.

سمع بعض الساهرين ذلك الترحيب الحار، فتدفقوا الى الخارج لمقابلة صديقهم الذي لا يرونه الاّ نادراً. وخلال لحظات وجيزة، أصبح سلفاتوري ديابولو محاطاً بجميع الرجال الذين كانوا موجودين في الداخل.

ظلت روزالبا واقفة في مكانها تتأمل أولئك الرجال، وهم يدفعونه الى الداخل... دون منحه أي مجال للاعتراض او المناقشة، أو حتى للالتفات نحوها ومشاهدة ثيابها الرائعة. وفجأة... ارتجف جسمها ذعراً وهلعاً، عندما سمعت صوتاً أجشاً قاسياً يقول لها ببرودة مرعبة من مكان ما وراءها:

- وأنت أيضاً يمكنك الدخول، يا... آنسة روسيني! اجلسي في الزاوية المواجهة للباب، حيث يمكننا مراقبتك طوال فترة وجود ديابولو هنا.

جلست روزالبا في الزاوية التي حددت لها، فاكتشفت انها تحتلها بمفردها... حتى على الرغم من الازدحام الشديد في بقية أنحاء القاعة. ولكنها شعرت بأنها ليست منعزلة تماماً عن الآخرين، فعشرات الأعين المعادية توجه اليها نظرات حادة أشبه بالسهام الفتاكة. انها ابنة عائلة روسيني، التي يكرهونها الى درجة مذهلة ويتحرقون للانتقام من أي شخص يحمل اسمها. أحست روزالبا فجأة، وللمرة الاولى في حياتها، بالخجل من اسم كان دائماً موضع فخرها واعتزازها.

تجرأت بعد قليل على رفع رأسها والتطلع حولها، فلاحظت أن جميع السيدات في تلك الحفلة يرتدين الزي القومي. أحست بشيء من الراحة النفسية وأخذت تنسى، تدريجياً، نظرات الحقد والكراهية... وتركز اهتمامها على دراسة بعض عادات الصقليين وتقاليدهم. لاحظت كيف يقترب الرجل بتهذيب مبالغ فيه من الشابة التي يود دعوتها الى الرقص، ثم ينحني أمامها ويتوجهان معاً الى الحلبة الكبيرة... وهما يمسكان بطرفي منديلها. عندما تنتهي الرقصة الشعبية، التي تضج حركة وحياة، ينحني الرجل مرة أخرى أمام مرافقته... ويبتعد عنها، ليكرر العملية ذاتها مع

شابة اخرى. وفي غضون ذلك، تسير هي بغنج ودلال داخل تلك الدائرة الى ان تجد رجلاً يعجبها... فتدعوه الى الرقص.

استمر الوضع على هذا المنوال، الى أن أصبح الجميع داخل الحلبة... الجميع باستثناء روزاليا وامرأة لم تشعر بوجودها، الا عندما سمعتها تقول لها من الوراء:

ـ كان يجدر بنا الآن، أثناء وجودك بيننا يا ابنة عائلة روسيني، أن نرقص تلك الرقصة الشعبية المشهورة... الترنتيلة! فهي رقصة ذات صلة وثيقة بالعنكبوت الذئبية الكبيرة... الترنتولة، التي يقال انه لا يمكن الشفاء من عضتها المميتة الا عن طريق الرقص بشكل عنيف ومرهق... لكي تخرج سمومها مع العرق المتصبب من جسم الشخص المصاب!

اقشعر جسم روزاليا ذعراً وهلعاً، فيما كان ذلك الصوت البارد الحاقد الذي يشبه فحيح الأفاعي يخترق اذنيها ويطعنها في الصميم. ولكنها أرغمت نفسها على الاحتفاظ برباطة الجأش، وقالت لصاحبة الصوت المزعج بلهجة لطيفة... دون ان تلتفت اليها:

ـ أنا آسفة... لأن وجودي يضايقك الى هذه الدرجة.

ـ يضايقني فقط؟ ألا تعرفين يا حفيدة الكونت، أننا جميعاً نكره عائلة روسيني... واسمها... وكل من ينتمي اليها؟

هزت روزاليا رأسها اعترافاً منها بهذا الواقع المرير، وقررت أن تقدم غصن الزيتون... آملة في التوصل الى نوع من المصالحة أو الحل الوسط مع هذه الامرأة. قالت لها بهدوء:

ـ لا يمكن لأي نزاع أو صراع أن يستمر، الا بوجود أخصام وأعداء من الجانبين. أنا لا أشعر بأي خصومة وعداء تجاهك أو تجاه أهلك وأقربائك، واتمنى قيام صداقة فيما بيننا.

تحطمت آمالها وأوهامها بسرعة على صخرة الحقد والكراهية، وسمعت تلك الامرأة تضحك بطريقة مرعبة وتقول لها:

ـ اذا كنت تأملين في انقاذ رأسك، يا آنسة، فانت واهمة وتضيعين وقتك سدى. فالثأر والانتقام لن يتوقفا، قبل أن يلفظ كل روسيني أنفاسه الأخيرة. ثمة وسيلة واحدة فقط لوضع حد نهائي لسفك الدماء، وهي زواجك من أحد رجالنا العازبين. ولكنني لا أرى أي أمل في ذلك

اطلاقاً... لانه اذا لم يكن هناك رجل واحد في هذه القاعة يقبل بدعوتك الى الرقص أو حتى بالاقتراب منك، فهل يعقل اذن ان يريدك أحد زوجة له!

تدخل القدر في تلك اللحظة الحاسمة، ليثبت ان تلك المرأة لم تكن على صواب... وأنّ الردّ على الدعوة للسلام بالاصرار على الكراهية الحاقدة مناف لجميع مبادىء الاخلاق والمثل العليا. فقد اقترب منها شاب في مقتبل العمر، وهو في ذروة نشوته وابتهاجه، وانحنى أمام روزاليا... موجهاً اليها الدعوة التقليدية للرقص. أدركت فوراً أنه لا يعرفها أو أن النشوة العارمة أنسته اسمها الذي يكرهه الجميع، فهبّت واقفة ورافقته الى الحلبة... آملة في الاختفاء مؤقتاً داخل ذلك الحشد الكبير من أبناء القرية. ولكن خطتها أخفقت منذ اللحظات الأولى، لأن نظرات الاستغراب والاستهجان والاشمئزاز تسلطت عليها كأنوار كاشفة... فيما اتسعت الدائرة حولها بسرعة، الى ان أصبحا وحيدين تماماً في وسط الحلبة.

ـ روسيني! روسيني! روسيني!

سمع الفتى هذا الاسم البغيض يتردد على شفاه الموجودين حوله، فتسمّر في مكانه... وأخذ يحدّق بوجه روزاليا. توقف العازفون عن العزف... وخيم على القاعة صمت رهيب مروع. أحست بأن مشاعر الحقد تحيط بها من جميع الجهات، وتبدأ بشد الخناق حول عنقها. كذلك شعر الشاب الطري العود بوطأة النظرات القاسية وفداحة الخطأ الذي ارتكبه، فابتعد عنها وكأنها حية سامة. ثم برقت عيناه ووجنتاه معاً بابتسامة ماكرة، وانحنى امامها باستهزاء وسخرية قائلاً:

ـ أحييك... يا مليكة أريكس!

ضجت القاعة بالضحك والتصفيق، فارتاح الشاب لتبرئة ساحته وبدا كأنه سيرقص وحده طرباً وسعادة. أما روزاليا التي لم تفهم مغزى التحية المرحة، فقد شلّت الصدمة القوية قدرتها على التفكير بهدوء وروية... فظلت واقفة دون حراك، لا تعرف كيف تتصرّف أو ماذا تفعل. وفي تلك الاثناء، كان ذلك الفتى المتحمس يتذوق طعم الانتصار المفاجىء والشعبية غير المتوقعة... ويتحول من شاب رقيق خجول الى رجل قاس جسور.

هجم عليها فجأة ودون سابق انذار، وبدأ يعانقها بعنف ووحشية، قررت ان تدافع عن نفسها بقوة وشراسة، وبغض النظر عن المضاعفات التي قد تواجهها كنتيجة لعدم الاستسلام الفوري.

لكمته على وجهه ورأسه... وركلته على قدميه ورجليه... غرزت أظافرها في خديه وعنقه وظهره... بينما كانت تحاول طوال الوقت ابعاد وجهها عنه. الا ان الراعي المفتول العضلات لم يأبه بتلك المقاومة المستميتة من جانب فتاة ضعيفة، بل ازداد عشقاً وهياماً وضمها الى صدره بقوة شديدة كادت تحطم أضلعها وتحبس انفاسها.

ساعدته الروائح الكريهة، المنبعثة من فمه وبقية أنحاء جسمه، على توجيه الضربة القاضية الى روزاليا... فأحست أنها ستصاب بالغثيان والاغماء. أدرك الآخرون مدى ضعفها، فأخذوا يحثون مهاجمها على الحاق المزيد من الذل والهوان بها... ويقترحون عليه القيام بأعمال فظة وحقيرة معها، لاشباع نهمهم وتعطشهم الى الثأر والانتقام.

- لويجي، أيها الأرعن الأحمق! اتركها... اتركها حالاً!

لم تشعر طوال حياتها بمثل هذه السعادة لسماعها صوتاً مألوفاً، وبخاصة عندما تصحبه خطوات عملية فورية لانقاذها من محنة أليمة مروعة. شق صوت سلفاتوري صراخ الحاضرين وضحكهم كسيف قاطع... فأخرسهم، وأرغم الشاب المهاجم على تركها دون تردد. دفعه نحو الآخرين المذهولين... بقوة وعنف بالغين، جعلاه يتعثر ويهوي قرب أقدامهم. ثم أطبقت يده بقساوة مماثلة على ذراعها، وصرخ بالفلاحين المتصاعين لأوامره انصياع الاغنام للرعيان... قائلاً بلهجة غاضبة ساخطة:

- أهم شيء في عمليتنا هو ألاّ تصاب هذه الفتاة بأي أذى، طالما اننا لم نحصل على الفدية التي نريدها.

رفع كيسه بيده الأخرى واندفع نحو الباب بعصبية فائقة، عبر الممر الواسع الذي فتحه له فوراً الفلاحون الصاغرون. ظلّ يجذبها وراءه بحدّة حتى ابتعدا مسافة طويلة عن المنزل، ثم توقف بصورة مفاجئة... وأخذ يتنفس بسرعة ويهز رأسه بتململ ظاهر وبشكل غير طبيعي. استغربت هذا التصرف الذي لم تكن تتوقعه بتاتاً، فرمى كيسه أرضاً وقال لها:

- أشعر بصداع قوي يكاد يفقدني توازني. احملي هذا الكيس عني لئلا أتعثر وأقع. انها بلا شك حالة مؤقتة، أرجو التغلب عليها بمجرد وصولنا الى الكهف.

استغرقت رحلتهما ضعف الوقت الذي يحتاجان اليه عادة، لأن روزاليا لم تكن تحمل كيساً خفيفاً... ولأنها كانت تفكر طوال الوقت بما قد يحدث لها تلك الليلة. فمن المؤكد أن وجود سلفاتوري في تلك الحفلة الصاخبة، ولو لفترة وجيزة، جعله يشعر بنشوة كبيرة... وينظر اليها بعينين تشعان بأفكار جهنمية.

دخلت الكهف بخطى خائفة متعثرة، واختارت إحدى زواياه البعيدة... فيما راح سلفاتوري يبحث بعصبية واضحة عن أعواد الثقاب لاشعال نار خفيفة. وقعت العلبة الصغيرة من يديه وتبعثرت الاعواد، فارتمى على ركبتيه لايجادها، وهو يشتم بصوت عال. تكومت روزاليا بذعر حول الكيس الكبير، وحضنته بين ذراعيها كأنها تحتمي به. وبينما كانت تفعل ذلك، وقعت يدها على شيء صغير أسطواني الشكل قرب فتحة الكيس... فتذكرت فوراً علبة الحبوب المنومة!

أخرجتها من الكيس بحذر بالغ، وهي ترغم أصابعها على عدم الارتجاف... مخافة أحداث اي أصوات تلفت انتباهه. حبست انفاسها وبدأت تفتحها ببطء شديد، بينما كان العرق البارد يتصبب من جبينها... وضربات قلبها تبدو لها كقرع الطبول. نجحت في محاولتها، الاّ ان مشكلة كبرى أشد خطراً لا تزال قائمة. فهي تريده ان ينام، ولكن... ليس الى الأبد. هل ستختار حبة؟ أو اثنتين؟ أو ثلاثاً...؟ اذا كانت العجوز المريضة بحاجة الى حبتين لتنام فترة طويلة، فمن المؤكد ان رجلاً قوياً في بداية الثلاثينات من عمره مثل سلفاتوري دبابولو يحتاج الى ضعف ذلك.

أخذت أربع حبوب ووضعتها في جيب مئزرها، ثم أعادت العلبة الى الكيس وأحكمت اغلاقه.

وفيما كانت تسند ظهرها الى الحائط وهي ترتجف خوفاً وذعراً، أنار المشعل أرجاء الكهف وشاهدت قدمين على بعد خطوة واحدة منها. رفعت رأسها بهلع شديد نحو سلفاتوري، فبدا وجهه عبر ألسنة اللهب كشيطان خرج لتوه من جحيم دانتي قال لها ضاحكاً بعصبية:

- أحييك . . . يا مليكة أريكس! هل تعرفين الاسطورة القائلة أن افروديت . . . رمز الحب والجمال، كانت تتزعم مجموعة من العاشقات التافهات اللواتي كن يمنحن الحب الرخيص لكل بحار ومسافر وطالب متعة؟ وهل تعلمين أن افروديت، حسب تلك الاسطورة، كانت تقيم مع فتياتها على قمة جبلنا أريكس . . . وتسمى مليكته؟ أليس من الممكن أن صديقك الراعي الشاب حظي منك على تشجيع ما أثناء الرقص، ليشبهك بها . . . ويهجم عليك بعد لحظات، سعياً وراء المتعة؟ انه احتمال قوي جداً، لأن تحرر الفتاة الصقلية اليوم لم يعد الآ جزءاً يسيراً مما كان عليه اثناء وجود افروديت المزعوم.

ابتعدت عنه بسرعة، عندما تأكد لها أن نشوته أنسته ضميره وترفعه . . . اللذين حافظ عليهما بقوة تستحق الاعجاب والتقدير طوال فترة اقامتها معه. رمى المشعل جانباً . . . ثم اقترب منها مجدداً وانحنى فوقها، مهدداً متوعداً:

- أريد امرأة . . . امرأة . . . امرأة! أريدها كقطعة حلوى، اتلذذ بطعمها وحلاوتها ببطء . . . قبل مضغها وابتلاعها!

رفعها عن الأرض دون عناء وضمها بين ذراعيه، فكادت تصرخ وتستغيث. ولكن الحكمة تغلبت على ردود الفعل العفوية والمتهورة، فقررت أن سبيلها الوحيد للخلاص هو تلك الحبوب المنومة . . . وايجاد الفرصة المناسبة لاعطائها له. أرغمت نفسها على التظاهر بالمرونة والقبول، وقالت له بغنج ودلال تحسدها على براعتها أي امرأة متمرسة:

- أليس من الأفضل لنا أن نشرب فنجاناً من القهوة القوية المنعشة، لكي نطرد أشباح التعب والارهاق والنعاس . . .

- فكرة عظيمة . . . رائعة! يبدو أننا الآن نتحدث باللغة ذاتها، ونطرب للانغام نفسها! خلي المشعل، فناره قوية الى درجة كافية . . . ولكن لا تتأخري كثيراً!

هرعت نحو الزاوية التي يضع فيها المؤن، والادوات المنزلية المتواضعة التي لا تستخدم الآ في بيوت الفقراء المعدمين، وهي تمنّي النفس بامكانية وضع الحبوب المنومة في فنجانه. وعندما أصبحت القهوة جاهزة بعد دقائق معدودة، صبتها في الكوبين اللذين يستعملانها . . . ثم وضعت الحبوب

الأربع في كوبه، وهي ترتجف خوفاً وقلقاً. أخذت ملعقة صغيرة لتحرك قهوته وتذيب الحبوب بسرعة، فاستدار نحوها وصرخ بها قائلاً:

- لا أريد أي كمية من السكر مع القهوة، فحلاوتك تكفيني! افرغي الكوب حالاً، واعدّي لي فنجاناً آخر من القهوة القوية المرة!

ارتبكت روزالبا بشكل لم يسبق له مثيل، وكاد الكوب يقع من يدها. لا شك في انه لاحظ خلال وجودها معه، بأنها لا تشرب قهوتها مع السكر. فماذا ستفعل؟ لجأت الى الحيلة والخداع مرة أخرى، فقالت له متظاهرة بالابتسام والمرح:

- لا داعي لذلك اطلاقاً! فأنا سأشرب القهوة المحلاة، كي أصبح . . . حلوة اللسان! سأعطيك الكوب الآخر.

استلقى على ظهره من شدة الضحك، فسارعت الى استبدال الكوبين مرة ثانية . . . وأعطته الفنجان الذي قد ينقذها من محنتها الأليمة. شرب القهوة الساخنة جداً . . . جرعة واحدة، وكأنه يريد استعادة نشاطه بصورة فورية. حاولت القيام بالشيء ذاته، لتثبت له استعدادها وتجاوبها، ولكنها لم تتمكن من شرب قهوتها الآ على ثلاث دفعات مضنية ومؤلمة.

وفيما كانت تعيد كوبها الى مكانه، تسلل وراءها بخفة مذهلة وانقض عليها كنمر شرس جائع. أمسك بذراعيها ثم تركها فجأة ليضمها الى صدره . . . وراح يعانقها برقة لم تكن تتوقعها. أحست . . . رغماً عنها . . . بمشاعر محرجة. وعندما انطفأ المشعل وغرق الكهف في سواد الليل الحالك، قال لها بصوت هامس أذاب عظامها خوفاً وهلعاً:

- يبدو أن الظلام يريد احتضانك وضمك، ومداعبة وجنتيك . . . ولكنني لن أدع الظلام يسبقني اليك!

زحفت احدى يديه ببطء الى شعرها تلامسه فحاولت ان تقاومه، فضحك وأدارها نحوه قائلاً:

- ألم تتمكن بعد من طرد أشباح التعب والارهاق والنعاس، كما اقترحت قبل قليل؟

حملها فجأة وسار بها نحو الكيس الذي يستخدمه للنوم، ووضعها عليه برفق لا يتناسب مع قساوته المعتادة. لن تتمكن من المقاومة . . . انهمرت دموع الحزن واليأس من عينيها، وقالت له متوسلة:

- توتو، أرجوك لا . . .

- توتو! يسعدني جداً، يا آنسة، بأنك أنت أيضاً بدأت تشعرين بالحاجة الى تطور صداقتنا. . . على هذا النحو الطبيعي.

تصورته، وهو يعانقها، بأنه يحاول تطهير نفسه من الحقد المرير. . . الذي يشعر به تجاه أي شخص يحمل اسم روسيني. لو أنها أحد رجال العائلة، لكان الآن يستخدم خنجره عوضاً عن فمه. . . وسوطه بدلاً من يديه! ولكن كونها امرأة، حمله على الاستعاضة عن التعذيب الجسدي أو القتل الفوري. . . بعذاب من نوع آخر أكثر اذلالاً ومهانة! كان يعانقها بعنف لا يعرف الشفقة والرحمة، وبقساوة تجهل معنى الرقة والحنان والاحساس.

لم تتوقف عن المقاومة، الاّ عندما أدركت أن تمنعها واعتراضها يزيدانه حماسة واندفاعاً. هل كانت العمة جيوسينا تتوقع ان ترمي هذه الثياب الرائعة وذات القيمة المعنوية الكبيرة، على أرض أحد الكهوف. . . كخرق بالية؟ تنهدت بأسى بالغ، عندما شعرت بارتخاء مفاصلها وبعدم قدرتها على الدفاع عن نفسها. سمعت ضحكة ارتياح وانتصار خافتة، فأرعبتها الخطوة المروعة التي سيقدم عليها. وما ان شعرت ببوادر الاغماء، حتى توقفت يداه العابثتان فجأة عن الحركة. . . وارتمى رأسه كجثة هامدة فوق صدرها.

استعادت قوتها بسرعة مذهلة، فدفعته عنها وأعدت نفسها لمقاومته مرة أخرى. ولكنه ارتمى قربها دون حراك. . . وبدا انه يغط في نوم عميق. يا لسعادتها! لقد أنقذها الدواء الذي اختارته دون استشارة الطبيب، من مرض اسمه. . . الطبيب المنتقم!

١٠- ستتزوجها أو أقتلك

فتحت روزالبا حقيبتها وأخرجت منها أول فستان أمسكت به يدها، ثم ارتدته على الفور. كان الظلام الشديد يمنعها من رؤية ملابسها، كما ان أفكارها المشوشة والقلقة لم تكن لتسمح لها باختيار هذه الثياب أو تلك.

جلست على مدخل الكهف بانتظار حلول الفجر لتتمكن من ايجاد طريقها نحو السهول. كانت مطمئنة البال الى ان سلفاتوري سيظل فاقد الوعي بضع ساعات اخرى، ولن يتمكن من اللحاق بها. ولكن الخوف من لقاء احد أصدقائه أو أقربائه أثناء محاولتها الهرب منه، كان يقلقها ويثير أعصابها. ولذلك، فقد بدت لها تلك الساعات الثلاث التي أمضتها في ذلك الجو البارد والمتوتر. . . أطول بكثير من الأيام الثمانية التي مضت على اختطافها.

بزغ الفجر وبدأت خيوط الصباح الفضية تقتحم ستائر الظلام، فوقفت روزالبا وألقت نظرة أخيرة على الكهف وسيده... اللذين دخلا حياتها فجأة وأحدثا فيها تغييرات هائلة. تأملت الملامح القوية والوسيمة للرجل، الذي يحمل منذ طفولته عبء الثأر والانتقام... والذي تتفجر في داخله حمم بركانية من العواطف الجياشة والمشاعر العنيفة. لم تعرف لماذا دمعت عيناها وتألم قلبها، وهي على وشك الخلاص نهائياً من محنة لم تكن لتتصور حدوثها حتى في كابوس مزعج!

سارت بالاتجاه المعاكس للقرية، آملة في الوصول الى مكان آمن يمكنها منه الاتصال بجدها. وما ان ابتعدت قليلاً عن الكهف وجواره، حتى أحست ببعض التحركات في السهل القريب. لا شك في ان هؤلاء هم الرجال الذين يبحثون عنها! ألم يحذّرها سلفاتوري مرات عديدة من احداث أي ضجة في هذه المناطق، بسبب احتمال وجودهم على مسافة قريبة؟ أسرعت الخطى باتجاههم، فكادت تقع أكثر من مرة لشدة فرحها وتلهفها. وفجأة... سمعت صوتاً يتردد صداه بين الصخور والحجارة، فأدركت ان احد الرجال شاهدها. ولم تمر عشر دقائق على ذلك، الا وكان عشرات الرجال المسلحين يحيطون بها من كل جانب. لاحظت ان معظمهم لم يكن من رجال الشرطة، بل من عمال جدها ومرافقيه. اقترب منها بعض المسؤولين الذين أقلقهم منظرها المحزن، وراحوا يمطرونها بأسئلة متلاحقة:

- هل أنت بخير، يا آنسة؟
- أين كان يخفيك ذلك الوغد الحقير؟
- كيف تمكنت من الهرب؟
- أين هو ديابولو؟

أثار ذكر اسمه موجة من السخط والغضب لدى كافة الرجال المتعطشين للدماء، وأخذوا يصيحون بأصوات عالية:

- ديابولو! ديابولو! خذينا حالاً الى مخبأه!

اشمأزت روزالبا من هذا النهم المرعب الى الانتقام، ورفعت يديها بارتباك قائلة:

- آسفة... لا أعرف. ثمة كهوف عديدة قرب القمة، وليست لدي

أي فكرة عن...

وفيما ارتفعت جميع الأعين نحو قمة الجبل، مد رجل يده الى مكان ما وصرخ قائلاً:

- هناك، هناك!

شهقت روزالبا بخوف وذعر شديدين عندما رأت الشال الابيض والاحمر، الذي أعطته اياها العمة جيوسبينا وألقته على كتفيها قبل هربها بلحظات معدودة، عالقاً بأحد أغصان شجرة برية صغيرة أمام الكهف... ويرفرف كأنه علم تعمدت وضعه هناك للارشاد الى مخبأ سلفاتوري. قال الضابط لأحد رجاله، بلهجة قائد عسكري على وشك تحقيق انتصار ساحق:

- رافق الآنسة الى منزل جدها فوراً، وأبلغ الكونت بأن ديابولو سوف يسلّم اليه خلال ساعة واحدة.

طلبت منه روزالبا باكية ألا يؤذي الرجل الذي يتعقبه، ورجته ان يسمح لها بمرافقة الرجال الى الكهف، فاعتبر الضابط ان تصرفها هذا غير طبيعي وناجم عن الصدمة التي لحقت بها. وقال لها بحزم:

- أرجوك، يا آنسة، بأن تسمحي لسائقي بأخذك حالاً الى بيتك. فجدك لن يغفر لي اطلاقاً اذا وافقت على زيادة عذابك... بافساحي المجال لك لمشاهدة عملية القاء القبض على كلب مسعور ومجرم محترف!

بكت طوال الطريق الى سيتاديل مونتي، وهي تؤنب نفسها على تصرفها الأرعن والأحمق... الذي سيعرض حياة سلفاتوري للخطر. وما ان اقتربت السيارة من القلعة، وبدأ السائق يطلق بوقها بشكل متواصل فرحاً وابتهاجاً بالعودة المظفرة، حتى أصبحت عينا روزالبا متورمتين من التعب والبكاء... ووجنتاها حمراوين حزناً وتأثراً... وشفتاها ترتجفان خوفاً وهلعاً. وعندما أوقف السائق سيارته العسكرية داخل باحة القلعة، فتحت البوابة الضخمة على مصراعيها وخرج منها في وقت واحد كل من الكونت وابريل. صرخت ابنة عمتها بارتياح شديد، وهرعت نحوها للترحيب بها وضمها الى صدرها. اما جدها، الذي وقف يتأملها بعينين تقدحان شرراً ويتمتم بشتيمة تلو الأخرى، فقد بدا لها كالحية الشريرة السامة.

- رباه! سيدفع البعض ثمناً غالياً لهذه الجريمة النكراء!

تذكر بعد لحظات بأن الأولوية الآن ليست للانتقام، فركض نحوها وعانقها قائلا بصوت خافت:

- حفيدتي... حفيدتي الحبيبة! كنت سأقبل بالتخلي عن كل شيء لدي، لأوفر عليك الوقوع في هذه الورطة الأليمة والمرعبة. تعالي لنأخذك الى غرفتك. ثمة أمور كثيرة يجب التحدث بأمرها، ولكن عليك أولا الاخلاد الى الراحة.

ثم تطلع نحو حفيدته الثانية، وقال لها بلهجة آمرة:

- ابريل، اعتني بابنة خالك. تأكدي من انها ستأخذ حماماً ساخناً، وتتناول طعاماً جيداً، وتحصل على كل شيء تحتاج اليه... قبل وضعها في السرير.

فك الرعب عقدة لسان روزاليا، فقالت بلهفة ظاهرة:

- ولكني لا أرغب في الذهاب الى النوم! أريد أن أعرف ماذا سيحل بسلفاتوري. أرجوك يا جدي... عدني بأنه لن يتعرض الى أي أذى، وبأنك لن تحمله المسؤولية كاملة عن...

قاطعها قائلا بلهجة حادة، توحي بالتوتر الشديد وبممارسة ضبط النفس الى أقصى درجة ممكنة:

- اصمتي! اختطفك ديابولو من بيتي، وتجاسر على دخول غرفتي بوقاحة منقطعة النظير، وترك قرب سريري رسالة قصيرة حدد فيها بعنجهية وغرور بالغين الفدية التي يريدها! ومع ذلك... يصل بك الغباء الى درجة التماس العفو عنه، ومحاولة تبرئته من مسؤولية جريمته! ماذا دهاك، يا صغيرة؟ هل دخل الشيطان الى رأسك ونفث سمومه في عقلك وأفكارك؟

شعرت بوطأة اليأس والأسى تثقل كاهلها، وتكاد تحطم البقية الباقية من أعصابها. فقد أدى تدخلها لمصلحة سلفاتوري الى صب الزيت على النار، وزاد من تفاقم الوضع الحرج والمتفجر. كان عليها ان تنتظر بعض الوقت، حتى تهدأ الخواطر وتخف حدة الانفعالات المتفجرة سخطاً وحقداً. الا انها لم تجرؤ على التريث طويلا، فالضابط الشرس وعد باحضار سلفاتوري الى القلعة خلال أقل من ساعة... مكبلا بالاصفاد ويجر وراءه أذيال الخيبة والذل والعار! يجب ان تكون موجودة عندما يحضرونه، لانها الوحيدة القادرة على انقاذ حياته... والراغبة في ذلك من

صميم قلبها. قررت فوراً اللجوء الى الحنكة والدهاء فقالت للكونت بصوت هادئ:

- آسفة، يا جدي. سأذهب فوراً الى الحمام، ثم ألتهم كمية كبيرة من الطعام... حسب اقتراحك، وأعود بعد ذلك الى هنا للتحدث عن أي موضوع تريده.

رفض فكرتها باصرار ودون تردد، قائلا:

- لن نتحدث اطلاقاً قبل ان ترتاحي بصورة تامة. ابريل، رافقي ابنة خالك الى غرفتها!

جلست روزاليا حزينة يائسة على احد المقاعد، فيما كانت احدى الخادمات تعد لها الحمام... وابريل تغرقها بأسئلة متعددة ومختلفة عن الخاطف، والمكان الذي أقامت فيه، وطبيعة الحياة في تلك المناطق البدائية الوعرة. لم تقدم لابنة عمتها الا اجابات قصيرة وسطحية، لأن تفكيرها مركز بكامله على سلفاتوري وعما حدث له. ليته تمكن من الهرب! ليتها لم تقدم على مثل تلك الخطوة!

- ما بك، يا روزاليا؟ لماذا لا تجيبينني الا بجمل مقتضبة ومبهمة؟ كنت مفقودة طوال الأيام الثمانية الماضية، بعد ان خطفك من داخل هذه القلعة الحصينة رهيب اشرس قطاع الطرق في صقلية، وسجنك في أحد الكهوف الجبلية البعيدة! شن عدد كبير من رجال الشرطة ومكافحة الارهاب حملة واسعة النطاق للبحث عنك، وكان يساعدهم في ذلك كل رجل يعمل في سيناديل مونتي! تعرّض الجد روسيني الى الذل والهوان، اضافة الى قلقه البالغ على حياتك، وكنت أنا مذعورة جداً وأكاد أصاب بنوبة عصبية شديدة الخطورة خوفاً عليك! ومع ذلك... فعندما تعودين الينا بعد هذه المحنة الرهيبة، وأحاول الاستفسار منك عن بعض ما حدث لك، لا أسمع منك الا كلمات قليلة مبهمة! من هو هذا الوغد الشرير ديابولو، وكيف كان تصرفه معك؟ لا أصدق حتى الآن ان هذه الحادثة وقعت فعلا! كان علينا ان نصغي اليك، عندما قلت لنا باصرار شديد ان ثمة رجلا يتعقبك ويطاردك من مكان الى آخر. ولكن القصة بدت خيالية بعض الشيء، ولا يمكن تصديقها بسهولة.

ثم تنهدت ومضت الى القول:

ـ أعدك بأنني لن أسخر من أي كلمة تقولينها بعد الآن، وسوف أتذكر دائماً ما قاله لي جدنا عندما استبعدت بشيء من الاستهزاء فكرة اختطافك... قائلة له ان طلب الفدية ليس أكثر من دعابة. قال لي آنذاك بمرارة وانزعاج ان مثل هذه الأعمال قد تكون نادرة في بريطانيا، ولكن كل شيء محتمل في صقلية.

شعرت روزاليا بارتياح بالغ عندما أصبح الحمام جاهزاً، وتمكنت من الابتعاد عن ابنة عمتها وتعطشها الى معرفة كل شيء عما جرى لها... منذ لحظة دخول الخاطف الى غرفتها، وحتى عودتها الى القلعة. ولما اختلت بنفسها، أخذت تفكر فوراً بأفضل وسيلة لحمل جدها على القبول باتهاء هذا الصراع الدامي الشرس... الذي لم يعد له وجود بين الناس المتحضرين، فمع ان الكونت والطبيب غير منطقيين في تصرفهما تجاه بعضهما، الا ان ايا منهما ليس غبياً او جاهلا. وبالتالي، فما عليها الا مناشدة ذكائهما لحملهما على الاقتناع بأن الحقد الأعمى ليس من شيم الرجال الشرفاء... وبأن الانجراف وراء المشاعر البدائية وعدم التحكم الى الروية والحكمة ليسا دليلا على القوة والشجاعة، بل على الضعف والجهل. نعم، ستجعل الذكاء يتغلب على الحماقة... والعقل يسيطر على الغباء... والواقعية تنتصر على الخيال... والمصالحة والمحبة تحلان على العداوة والكراهية! انهما لا يحتاجان الا الى القليل من ضبط النفس، فهل يستحيل عليها اقناعهما بذلك؟ لا، فسوف تقنعهما بدفن احقادهما الى الأبد! ومن يدري، فقد يتحولا يوماً ما الى... صديقين!

جففت جسمها وشعرها ثم ارتدت فستاناً قطنياً خفيفاً، وجلست أمام النافذة لتأكل الطعام الذي أحضر لها قبل دقائق قليلة. ولكن القلق على مصير سلفاتوري وحياته، حرمها الشهية التي كانت تتوقعها. وشعرت روزاليا بأن اهتمامها كله، منصب على سماع أي صوت قد يوحي بوصوله الى القلعة.

لم تضطر للانتظار طويلا. فما كادت تأكل اللقمة الأولى، حتى سمعت أصوات آليات تقترب من القصر... وشاهدت بعد لحظات معدودة رتلا من السيارات والشاحنات المكتظة بالرجال المسلحين. كانت تتقدم القافلة سيارة عسكرية مكشوفة، يحتل الضابط السعيد مقعدها الأمامي قرب

السائق... فيما يجلس سلفاتوري على المقعد الخلفي والى جانبيه رجلان شرسان يصوبان رشاشيهما الى صدره ورأسه.

تحطم صحن الطعام عندما ارتطمت يدها به، وهي تهب واقفة وتركض كالمجنونة باتجاه الباحة الخارجية. وما ان وصلت الى القاعة الكبرى، حتى فوجئت بجدها يخرج من مكتبه.. ويمسك بها على عتبة البوابة. وكان أول شيء يشاهده سلفاتوري، وهو يدفع بأعقاب البنادق نحو الداخل، الطريقة التي يمسك بها الكونت المتعجرف حفيدته المرتجفة. لن يعرف ديابولو اطلاقاً، ان الذراع واليد القويتين تضغطان بعنف على كتف روزاليا... لمنعها من الركض نحوه. تألمت لدى رؤيتها آثار الضرب والتعذيب على وجهه وصدره، وقالت هامسة:

ـ هكذا فعلوا بك، أيها المسكين!

ولكن احداً لم يسمع جملتها، لأن كلام الضابط الفخور غطى على صوتها وأغرقه... عندما قال لجدها، وهو يدفع سلفاتوري الى الأمام بقساوة ووحشية:

ـ هذا هو المجرم الفار ديابولو، يا سيدي الكونت!

لاحظت روزاليا مدى سعادة جدها وسروره العظيمين بما يعتبره انتصاراً رائعاً على آخر اعدائه، وذلك عندما سمعته يقول بلهجة باردة مرعبة:

ـ اذن أنت ديابولو! لم أكن بحاجة الى من يخبرني اسمك، لأعرف أنك من حثالة القوم... ومن تلك العائلة الفاسدة ذاتها التي أنجبت ذلك المجرم الشرير توريدو. فالملامح نفسها، والبربرية نفسها، وكذلك الغباء نفسه... الذي جعلكما تتمردان عليّ وتحاولان شن حرب يائسة ومعروفة النتائج سلفاً. وبما انك تبدو مصمماً على التمثل بعمك الراحل، فسوف أكون سعيداً جداً للتأكد من ملاقاتك مصيراً مماثلا!

سلّط سلفاتوري نظراته الحادة على روزاليا لبعض الوقت، قبل ان يقول للكونت:

ـ هل تعني بأنني سأتعرض مثله الى الاغتيال غدراً وخيانة؟ هل تعني بأنك ستعد لي مكمناً مسلحاً، وتأمر احد رجالك الجبناء باطلاق النار على ظهري؟

انتفض رأسه بشموخ واباء، ثم مضى الى القول بلهجة ساخرة

لاذعة. . . غير آبه بالعواقب الوخيمة التي سيواجهها من جراء ذلك:

ـ انت ايضا، أيها الكونت، تتصرف تماماً كالأفعى السامة التي تتشبه بها! ألست مثلها غدّاراً وحاقداً، وتقتل ببرودة أعصاب. . . ولأجل لذة القتل فقط؟

لم تعد روزاليا قادرة على تحمل المزيد، لأن هذا اللقاء جاء على عكس ما كانت تتوقعه وتتمناه. فقد ازداد الحقد عوضاً عن تخفيفه بواسطة العقل والمنطق، وتضاعف التعطش الى الانتقام بدلاً من تطويقه وتناسيه عن طريق الحوار والتفاهم. أفلتت من يد جدها ووقفت في منتصف الطريق بين الرجلين، صارخة بأعلى صوتها:

ـ كفى، كفى، توقفا عن استخدام مثل هذه الكلمات العنيفة والحاقدة!

ثم نظرت اليهما، كل على حدة، وقالت لهما مناشدة متوسلة بصوت رقيق حزين:

ـ ألا تعتقدان ان حرب الانتقام السخيفة والمروعة هذه، قد طال أمدها وحان ايقافها؟ انتما مسؤولان تجاه أولئك الذين يتطلعون اليكما لقيادتهم وارشادهم! فكيف يمكنكما اساءة استخدام مركزيكما، والثقة العمياء التي يمنحكما اياها اتباعكما باعطاء هؤلاء الأميين الجهلة مثل هذه الأمثولة الرهيبة المروعة؟ ألا تعرفان ان اتباعكما لن يصبحوا اكثر علماً ومعرفة، طالما انكما مصران على تغذية الكراهية والعداوة بين هذه العائلة وتلك. . . لا لشيء الا لارضاء نهم الحقد والانتقام الشخصيين، اللذين يأكلان قلب كل منكما؟ ليس قائداً وزعيماً، من لا يعرف كيف يتحمل المسؤولية. فكونا رجلين مسؤولين واعترفا بانكما كنتما على خطأ في الماضي. قررا الآن، وقبل أي شيء آخر، ان تزيلا من رأسيكما جميع أفكار الثأر والانتقام، حتى يمكنكما ان تفتحا صفحة جديدة كصديقين!

أدركت روزاليا فوراً انها خسرت معركة الوفاق والمحبة، عندما حدقا بها معاً وكأنها شخص فقد عقله. ثم قال لها جدها ببرودة مرعبة:

ـ اعترف بخطأ واحد فقط، وهو انني لم أتأكد بنفسي من القضاء على جميع رجال عائلته بصورة تامة. ولحسن الحظ، فانه خطأ يمكن تصحيحه فوراً ودون تأخير او تردد. الشيء الوحيد الذي يجب اتخاذ قرار بشأنه، هو

اختيار الطريقة والأسلوب المناسبين.

تطلع نحو خصمه، الذي ينظر اليه باحتقار شديد، وسأله باستهزاء صارخ:

ـ هل من أسلوب معيّن تفضله، يا. . . سيد ديابولو؟

انتفض سلفاتوري سخطاً وغضباً، وتحدّاه صارخاً بعنفوان وفخر:

ـ افعل ما تريده ويحلو لك، فقلبي لا يخاف الطغاة المستبدين مهما بلغ بأسهم وبطشهم. . . ومهما حاولوا النيل من كرامتي وعزة نفسي!

هز الكونت رأسه وقال له بلهجة، كتلك التي يستخدمها الحاكم المطلق في تلبيته الرغبة الأخيرة لسجين حكم عليه بالاعدام:

ـ حسناً! سنستخدم لعقاب البنادق!

ثم تطلع نحو الضابط وخاطبه بعنجهيته المعتادة، وكأنه يأمر أحد رجاله او أتباعه:

ـ لقد قمت بمهمتك على أحسن وجه، أيها الضابط المقدام، ولم يعد هناك أي داع لتوريطك أكثر من ذلك في هذا الموضوع. عد الآن الى مركزك ، وابلغ رئيسك بأن القضية طويت نهائياً. سيتولى رجالي الاهتمام بالأمر، ويتأكدون من ان العدل سيأخذ مجراه بطريقة مناسبة.

لم تصدق روزاليا ان مثل هذا الخرق الفاضح للقانون والعدالة والقيم الاخلاقية يمكن حدوثه، الا عندما رأت رجال الشرطة يحييون جدها باحترام بالغ ويغادرون القاعة بهدوء وانتظام. وفيما بدأت السيارات التي تقل العسكريين بالابتعاد قليلا عن باحة القلعة، انتبهت روزاليا الى ان الرجال الذين يطيعون جدها بطريقة عمياء. . . والى درجة انهم يقبلون بتعذيب رجل لا يعرفونه حتى الموت، هجموا على سلفاتوري وأخذوا يجرونه الى الخارج. صرخت بصوت مرتجف:

ـ مهلاً! انتظروا!

توقف الرجال في اماكنهم، وقال لها جدها باسماً:

ـ نعم، هل لديك ما تقولينه، قبل معاقبة هذا الوغد الشرير بالطريقة التي يستحقها؟

لم تستخدم الحيلة والخداع اطلاقاً قبل مجيئها الى صقلية، كما انها لم تلجأ مرة واحدة في حياتها الى الكذب. ولكن. . . اذا كان الكلام الذي سمعته

ليلة أمس من المرأة القروية الحاقدة صحيحاً، فانها لن تتردد في اللجوء الى الكذب لانقاذ سلفاتوري، وانهاء هذا الصراع الدامي بين عائلة روسيني والفلاحين. سألت جدها بصوت خافت، وهي تتظاهر بالخجل العميق:

ـ ماذا سيحدث لو انني حامل، يا جدي؟ كيف ستشعر مستقبلاً، فيما لو أمرت الآن بقتل والد طفلي الذي سيلد يتيماً بعد تسعة أشهر؟

وقعت كلماتها القليلة كالصاعقة على رؤوس الجميع، فاحمرت وجوه العمال وبدأوا يتحركون بخوف وتململ شديدين... وهم لا يعرفون ماذا يفعلون. هل يفرون الى الخارج هرباً من تعرضهم لغضب الكونت المرعب، ام يظلون في أماكنهم لحين تلقيهم أمره بمغادرة القاعة؟ اما جدها، فقد شحب وجهه سخطاً وألماً... وهو يحاول جاهداً السيطرة على صدمته وذهوله، الناجمين عن عدم رغبته في تصديق هذه الفضيحة المروعة.

لم يخفها سخطه، ولم تأبه لما يشعر به في هذه اللحظات الحرجة. أخافها كثيراً في اليومين الأولين لوصولها الى الجزيرة، ولكن مواجهته الآن... بعد المحنة الأليمة والمرعبة التي عاشتها في الجبال... تبدو سهلة للغاية. علّمتها تلك الفترة القصيرة شيئاً ان كل انسان، مهما كان ضعيف الارادة والشخصية، قادر على ان يكون شجاعاً... عندما يصبح بحاجة ماسة الى الشجاعة. ارعبتها الحشرات والسحليات والأفاعي في بداية الأمر، ولكنها دربت نفسها على مواجهتها بشجاعة واعتبارها مجرد مخلوقات صغيرة لا تسبب أي خطر حقيقي او ازعاج جدي. الا ان انتصارها الأعظم تمثل في تغلبها على الخوف من الاتصال المباشر بالانسان عامة... وبالرجال خاصة، وفي تحول ذلك الرعب المسيطر عليها الى عواطف ومشاعر فياضة اسمها... الحب.

تطلعت نحو سلفاتوري بحنان ظاهر، فلاحظت اختفاء اللون من وجهه الوسيم... وحلول الذهول والاستغراب محل الغضب والتمرد. أرادت ان تركض اليه وتبلغه بأنه لم يتصل بها في الليلة الماضية، على الرغم من عزمه على ذلك. ولكنها لم تجرؤ على القيام بمثل هذه الخطوة، لأن من المهم جداً... في الوقت الحاضر على الأقل... ان يظل الرجلان مقتنعين بصحة كلامها.

بدت الشيخوخة لأول مرة بوضوح تام على وجه الكونت، عندما رفع

يده نحو رجاله وحركها بطريقته المعتادة لكي يغادروا القاعة. ولو ان النظرات قادرة على جرح الانسان جسدياً، لكان سلفاتوري الآن مضرجاً بالدماء التي تنزف من قلبه. قال الكونت للذئب الذي يعتقد بأنه افترس حفيدته البريئة، أو غرر بها:

ـ سوف تتزوجها بالتأكيد!

شعرت روزاليا بأن هذه الجملة القصيرة، التي قالها جدها كقاض يلفظ حكماً مبرماً ونهائياً، أثارت حفيظة سلفاتوري وجعلته يرفض الرضوخ للتهديد والوعيد. اجابه باحتقار ظاهر:

ـ لن أقبل أبداً بالزواج من أي شابة تحمل اسم روسيني، ما لم يكن لدي حافز قوي للغاية.

قال له الكونت ببرودة تقطر سماً قائلاً:

ـ لديك الآن حافز قوي. فاما ان تتزوجها... او ان تموت!

حاولت روزاليا يائسة لفت انتباه سلفاتوري، لتفهمه بالنظرات عدم جدوى هذه المبارزة الكلامية... وبأنها اختلقت هذه القصة لانقاذ حياته. ولكنه بدا انه يتجنب النظر اليها عمداً، وبخاصة عندما أجاب عدوه اللدود ببرودة مماثلة:

ـ ثمة من يقول ان الموت قد يكون أفضل من هذا الزواج.

ـ ليس هذا بالأمر الصعب اطلاقاً، ويمكن تحقيقه خلال دقائق قليلة. ومع ذلك... فعلى الرغم من ثقتي التامة بأن رجالي لن يبوحوا اطلاقاً بالمعلومات التي سمعوها اليوم، فاني لا أشك بتاتاً في ان سكان القرية كلها... او حتى الجزيرة بكاملها... سوف يعرفون خلال ايام ان حفيدتي حامل. وعليه... فمع انني سأشعر بالألم الشديد والاحتقار الذاتي لحمل أحد احفادي اسمك اللعين، ولكنني اعترف بأن اسم ديابولو هو أفضل بقليل من تلك التسمية المرعبة الأخرى... ابن زنى!

اشمأزت روزاليا من هذا الوصف البغيض، ولكنها كانت اكثر قلقاً بسبب تدهور الأوضاع بين العدوين العنيدين. التفتت نحو سلفاتوري، فبدا انه لا يزال محافظاً بقوة وصلابة على أعصابه الحديدية، وسمعته يقول بهدوء مذهل:

ـ ليس هناك اي ضمان أكيد بأن ثمة جنيناً ينمو في أحشائها.

- هذا صحيح تماماً. ومع انني أرفض دائماً وبشكل قاطع الأخذ بتعهدات رجل شرير مجرم، الا انني مستعد في هذه الحالة بالذات الى قبول ذلك. فهل يمكنك ان تقسم أمامي الآن، بأن هذا الاحتمال غير وارد اطلاقاً؟

شحب وجه سلفاتوري قليلا وتردد لحظة وجيزة، ثم نظر بسرعة نحو روزالبا وقال بانزعاج ظاهر:

- لسوء الحظ، لا يمكنني ذلك.

- سأقول لك اذن ماذا سأفعل. كانت الفدية التي طالبت بها، مقابل الافراج عن حفيدتي، بناء مستشفى مجهز تماماً بأحدث المعدات الطبية... وتخصص فقط لأبناء مناطقك الجبلية. كما طالبتني بتأمين مبلغ كبير من المال، يوضع في أحد المصارف المعروفة باسم ادارة المستشفى، لاستخدامه في ابقاء المستشفى عاملا بشكل طبيعي... بغض النظر عن العجز الذي سيواجهه في تغطية نفقاته. أعدك الآن بأنني سأصدر تعليماتي للبدء في بناء هذا المستشفى، في اللحظة التي يتم فيها زواجكما.

شاهدت روزالبا بريق الارتياح في عيني سلفاتوري، فتضايقت لشعورها بأنها أصبحت موضع مقايضة ومساومة.

- والمال...؟ لن يكون المستشفى أكثر من مجرد بناء حديث مجهز بمعدات متطورة، ما لم تحصل على المال لتأمين عمله وتقديم الخدمات المجانية للمحتاجين اليها!

- سأخصص لكم مبلغاً اكبر من الذي طلبته... يوم أصبح انا الجد الأكبر لطفل روزالبا.

احمرت وجنتا روزالبا حياء وخجلا، فيما بدا سلفاتوري وكأنه يحلل الوضع بجدية قبل اتخاذ القرار الأخير. لن يهمها قبوله أو رفضه، لأنها لن تتزوج رجلا لا يقبل بها الا كنتيجة للابتزاز والتهديد. ولكن... على الرغم من ان الموضوع ليس اكثر من مجرد فكرة افتراضية بحتة، الا انها شعرت بلذة مرعبة وذعر ممتع عندما سمعت سلفاتوري يقول موافقاً... بتردد طعن كرامتها وأثار اشمئزازها:

- حسناً، أيها الكونت روسيني. اذا التزمت بالشروط المتفق عليها، حسب تعهدك الآن، فسوف أتزوج حفيدتك.

١١ - حزينة... كجدتها

تحولت الأيام التالية في حياة روزالبا، الى كابوس لا يصدق. فبعد لحظات من موافقة سلفاتوري على الزواج منها، ابعده حراس الكونت عنها ولم يسمح لها منذ ذلك الحين بالقاء نظرة واحدة عليه... حتى عن بعد. وقد فهمت من ابريل انه وضع في مكان ما من القلعة، وتحت حراسة مشددة ليلاً نهاراً لئلا يغير رأيه ويحاول الفرار.

لم تكن ابنة عمتها على علم بأي من التفاصيل، سوى ان زواجاً ما قد تم اعداده. وعلى الرغم من شعور روزالبا بالحاجة الماسة الى التحدث عن مشكلتها وسرها مع شخص موثوق به، الا انها لا تثق بطبيعة ابريل الثرثارة... ولا تجرؤ بالتالي على المجازفة بابلاغها عما حدث، مخافة وصول الحقيقة المميتة الى مسامع جدها.

تحمست مرات عديدة للاعتراف بكذبها، وبخاصة عندما اكتشفت مسارعة جدها الى تحديد موعد قريب جداً للزواج. وقد فوجئت بأنه يعالج المشكلة بصورة شبه طبيعية وبشيء من الارتياح الكلي، ولكنها تخوفت من انه يعمل سراً على اعداد خطة جهنمية ما تتناسب وطبيعته القاسية المتحجرة. تأكدت مخاوفها، عندما حضر فجأة الى غرفتها وبدأ يشرح لها خطته. كانت تسير في الغرفة على غير هدى، وهي تحاول جاهدة التفكير بوسيلة تسمح لها باجراء حديث بالغ الأهمية مع سلفاتوري. سمعت طرقة خفيفة على الباب، فسمحت للطارق بالدخول. وبعدما حياها الجد روسيني باسماً، وجلس على احد المقاعد تلبية لدعوتها، استهل حديثه بالقول:

ـ اتيت الآن، يا عزيزتي روزاليا، لاطلاعك على التطورات الحاصلة في خطة الزواج. لقد حدد موعد الزفاف بعد ثلاثة ايام، واعددت له كافة الترتيبات القانونية. سيتم الزواج في كنيسة العائلة، ولكنني لم اوجه دعوة الى احد بسبب... الظروف الحالية. اما العمال والفلاحون الذين منحتهم اجازة في ذلك اليوم، فسوف يحتشدون بالتأكيد خارج الكنيسة لتحية العروسين. آمل في الا يزعجك ذلك، يا عزيزتي.

شعرت روزاليا بأن جدها لا يعير مشاعرها وآراءها اي اهتمام يذكر، وأنه لا يطلعها على هذه التفاصيل الا من قبيل المجاملة.

ـ وبما انه لم يعد امامنا وقت كاف لخياطة فستان عرس خاص بك، فقد أمرت ريتا بايجاد الفستان الذي ارتدته جدتك يوم زفافنا... وأرجو الا يؤدي هذا الاختيار الى مضايقتك بأي شكل أو آخر. اذا لم تخني الذاكرة بعد، فان جسميكما متشابهان الى درجة مذهلة... وسيبدو فستانها وكأنه اعد خصيصاً لك. وبما ان جدتك كانت صاحبة ذوق مرهف ورفيع، فمن المؤكد ان الفستان سيعجبك كثيراً.

هبت روزاليا واقفة بعصبية، لم تتمكن من السيطرة عليها أو اخفائها. صحيح ان تصرفها هو الذي ادى الى وقوع هذه المشكلة، ولكنها لم تلجأ الى استخدام الكذب الا لانقاذ حياة انسان بريء. لم يكن لديها الوقت الكافي آنذاك للتفكير بعواقب الأمور، وبالمضاعفات الجدية التي ستنجم عن مثل ذلك التصريح الخطير. تصورت انها ستضع حداً نهائياً للصراع الدامي

الناشب منذ سنوات عديدة، وتتحمل بالتالي اياماً قليلة من الازعاج النفسي كزوجة صورية لسلفاتوري ديابولو. وتخيلت في تلك الآونة ايضاً ان سلفاتوري سيجد بعد الزواج فرصة مناسبة للهرب... وستتمكن هي بالتالي من العودة الى بريطانيا، حيث تنسى تدريجياً آلام الاسبوع الفائت وعذابه. قالت للكونت المتسلط، وهي تقطع ارض الغرفة جيئة وذهاباً بعصبية واضحة:

ـ جدي... انا بحاجة الى مزيد من الوقت. اعرف ان طلبي هذا قد يبدو مستهجناً.. الى حد كبير، بالنظر الى مدى... الصداقة والود القائمين بيني وسلفاتوري. ولكن حقيقة الأمر هي ان الرجل لا يزال كشخص غريب بالنسبة الي.

فتح ذراعيه بتململ واستغراب ظاهرين قائلاً:

ـ الوقت... هو الشيء الوحيد الذي لا يمكنك الحصول عليه، يا عزيزتي.

علمت فوراً انه يشير بذلك الى موعد الولادة المزعوم، فلم تجد بداً من المجادلة والاعتراض. قررت ان تجابهه بمنطق لا ترفضه فحسب، بل وتشعر تجاهه ايضاً بكثير من الازدراء والاستخفاف. قالت له:

ـ لم يعد الزواج قبل ولادة الطفل، شرطاً اساسياً وضرورياً في المجتمعات العصرية والحديثة. ففي ايامنا هذه، ينتظر الرجل والمرأة بعض الوقت... وأحياناً لمدة سنوات... قبل اتخاذ القرار المناسب فيما اذا كانا صالحين لبعضهما كزوجين ام لا.

نظر اليها بعصبية، وقال لها ببرودة مرعبة:

ـ لم يلد بعد في عائلتنا اي طفل قبل زواج والديه، ولن يحدث مثل هذا الأمر اطلاقاً... طالما انني قادر على منعه.

ثم اضاف بامتعاض شديد:

ـ لم اكن يوماً اعتبر ديابولو صهراً مثالياً أو محتملاً، ولكن صحته الممتازة وقدرته على الانجاب تجعلانه زوجاً مقبولاً الى حد ما.

استاءت روزاليا كثيراً من هذه الملاحظة الفظة والوقحة، وتأكد لها بشكل قاطع ونهائي مدى هوس جدها الجنوني بالاستمرارية عن طريق الدم. قالت له بلهجة حزينة متأثرة:

ـ الم تتعلم ابداً، يا جدي، من الأخطاء التي وقعت فيها سابقاً؟ حاولت مرة في السابق ارغام ابي على الزواج من والدة سلفاتوري، فماذا كانت النتيجة؟ الم تتطور الأمور بسرعة وتتحول الى حرب دموية شعواء، لا تزال مستعرة حتى هذا اليوم؟

قفز الرجل العجوز من مكانه، وقد انساه الحقد والغضب تظاهره المستمر بالابوة والحنان والاخلاص، ثم قال لها بنبرة جافة جداً:

ـ كان ابوك شاباً غبياً... كان بسيطاً ورقيقاً كوالدته، التي سيطر قلبها دائماً على عقلها ودماغها. اما ديابولو... فعلى الرغم من جميع مساوئه وشروره، فانه يجسد طبيعة ابناء جنسه الحادة والقوية والمتوقدة. وبما انه تجري في عروقك انت دماء عائلة ارستقراطية عظيمة، حافظت على عراقتها وامجادها منذ اجيال عديدة... فان ثمرة زواجكما ستمنحني حفيداً افخر بانه يمثل عظمة عائلة روسيني وصلابتها.

ها هو جدها المتعجرف القاسي يكشف القناع عن وجهه مرة واحدة، لأنه سئم على ما يبدو اضطراره للتظاهر بالعاطفة والمحبة... اللتين لم يعرفهما اطلاقاً في حياته. كرهت عنجهيته وظلمه، وتضايقت كثيراً من تجاهله المتعمد والتام لمشاعر الآخرين، فتجاسرت على مواجهته والاعتراض على مشيئته. قالت له متلعثمة بعض الشيء:

ـ لن اتزوج مكرهة او رغماً عني، يا جدي!

وجه اليها نظرة باردة شريرة، وقال لها بلهجة هادئة تحمل في طياتها تهديداً جدياً:

ـ بعد ثلاثة ايام، ستقفين مع ديابولو امام الكاهن ليعقد قرانكما. وسوف تغادرين الكنيسة اما كزوجة له، أو كشريكة في جريمة قتله... كما تصرين على تسمية العقاب العادل الذي يستحقه!

ظل الذهول المرعب مسيطراً عليها لأكثر من نصف ساعة بعد مغادرة جدها، وهي تحاول ايجاد وسيلة للهرب من هذه المحنة البالغة التعقيد. كيف يمكنها القبول بالهزيمة، دون مقاومة؟ لقد عاشت طوال حياتها في عالم، اصبحت فيه حرية الفرد امراً اساسياً ومضموناً. فكيف يمكن لعقلها استيعاب ما يجري الآن في هذه الجزيرة الصغيرة البعيدة، والرضوخ بالتالي لأوامر رجل عجوز قاس يتصور انه يعيش في القرون الوسطى؟ يقرر مصير

مجموعة كاملة من الناس الامين البسطاء، الذين دجنهم باستبداده وطغيانه... وأرغمهم على اعتبار انفسهم عبيداً له وجزءاً من ممتلكاته! ويبدو ايضاً ان الجريمة مسألة عادية جداً بالنسبة اليه، والا فكيف يمكن تفسير الأمر الذي اصدره ببرودة مذهلة لضرب سلفاتوري بأعقاب البنادق... حتى الموت! ولكن جدها ليس الشخص الوحيد في صقلية، الذي لا يعذبه ضميره في امور كهذه. الم يسمع ذلك الضابط وجنوده ان الكونت سيقتل ديابولو، وقبلوا مع ذلك بمغادرة القلعة باسمين؟ الم تقل لها العمة جيوسبينا، في معرض تبريرها اعمال ابنها الشقي توريلو، ان ارتكاب الجرائم في صقلية امر عادي؟ لقد سارعت تلك العجوز آنذاك، عندما لاحظت دهشة روزالبا واستغرابها، الى القول مؤكدة:

ـ لا تقلقي، يا آنسة، فالأجانب مثلك آمنون تماماً. نحن لا نقتل الا للثأر والانتقام، أو اثناء عراك... أو مشادة كلامية فيما بيننا.

هل حاول جدها خداعها، عندما هددها بقتل سلفاتوري؟ هذا الاحتمال وارد في اي مكان آخر، ولكنه غير ممكن اطلاقاً في جزيرة... قال هو بنفسه لابريل عنها، ان اي شيء يمكن حدوثه فيها. اذن... فليس امامها سوى السبيل الوحيد الذي حدد لها. فاذا كانت تريد انقاذ حياة سلفاتوري... وهذا ما تريده بالطبع، فما عليها الا القبول بمراسم الزواج. ستشرح له لاحقاً بأنها وافقت على ذلك، كنتيجة للضغط والتهديد... وبأنهما سيفترقان دون خصام، بمجرد ابتعادهما قليلاً عن جدها وسيفه المسلط عليهما. شعرت روزالبا فوراً بارتياح نفسي، وذهبت لتبحث عن ريتا. وعندما وجدتها، قالت لها:

ـ ابلغي جدي بأنك...

قاطعتها مدبرة المنزل بتوتر ظاهر، وهي تحمل مفتاحاً كبيراً بيدين مرتجفتين... وتبدو على اتم الاستعداد للتخلص منه بصورة فورية:

ـ نعم، يا آنسة، وكنت انتظر مجيئك على احر من الجمر. هذا هو مفتاح غرفة الكونتيسة الراحلة، التي لم يدخلها احد بتاتاً منذ وفاتها.

ـ الم يدخل احد حتى لتنظيفها طوال هذه السنين؟ ولكن... لماذا؟ اوه، ريتا، لا تقولي لي انك خائفة من الأشباح؟

تمتمت ريتا بكلمات مبهمة، وهي تبتعد عن الباب خائفة مذعورة، ثم

قالت بارتباك وتلعثم شديدين:
- يقال ان ارواح التعساء والحزانى، تظل موجودة في اماكن اقامة اصحابها لفترات طويلة بعد مماتهم. ما من احد ابداً شاهد الكونتيسة المسكينة الراحلة وهي تبتسم، حتى في يوم عرسها وحضورها الى القلعة.

ارتعش جسم روزالبا وهي تسمع تلك الجملة الأخيرة، وتفهم على الفور السبب الوحيد لذلك الحزن الدائم. اخذت المفتاح من يد المرأة المتقدمة في السن، وقالت لها لتهدئة خواطرها:
- لا بأس، يا ريتا، فأنا سأجد فستان الزفاف بنفسي.

انحنت مدبرة المنزل امامها بسرور وارتياح كبيرين، وهمّت بالهرب بعيداً عن هذه الغرفة المخيفة. الا ان فكرة جريئة خطرت ببال روزالبا في تلك اللحظة بالذات، فأوقفتها قائلة:
- هل تحملين معك مفاتيح جميع غرف القلعة، يا ريتا؟
- نعم... ! نعم، يا آنسة.

هذه هي فرصتها الوحيدة للتحدث مع سلفاتوري! سيطرت على ارتباكها وتوتر اعصابها، وسألتها بلهجة عادية جداً:
- هل يمكنك اذن، ان تعطيني مفتاح غرفة السيد ديابولو؟

ظهر الرعب الحقيقي في نظرات ريتا وارتجاف جسمها ويديها، ثم اجابت بعد مرور بضع لحظات على سماعها السؤال:
- لا اجرؤ على ذلك، يا آنسة، فالكونت سيقتلني اذا علم بالأمر!

حثتها روزالبا على القبول، قائلة:
- ولكنه لن يعرف بهذا الأمر اطلاقاً، كما انني مضطرة للتحدث مع السيد ديابولو. لن احتاج الا الى دقائق معدودة... اعدك بذلك.

غرقت ريتا في دوامة من الأفكار المتناقضة، وظهرت دلائل عذاب التردد والحيرة في عينيها وتحركات يديها. تطلعت بسرعة نحو نهاية الممر الذي تقفان في بدايته، وكأنها تخشى خروج روح سيدها المنتقم من احد تلك الجدران الصخرية الصلبة. تأكد لروزالبا عندئذ بشكل جازم، بأن ما من احد يطيع الكونت حباً به واخلاصاً له... ولكن خوفاً منه ومن بطشه وانتقامه. اقتربت منها ريتا، وهمست في اذنها بصوت يرتعش ذعراً وهلعاً:
- سألبي طلبك، يا آنسة، لأنك تشبهين الكونتيسة... التي كنا جميعاً

نحبها الى درجة لا يمكن وصفها. ولكني اتوسل اليك بألا يستغرق اجتماعكما اكثر من خمس دقائق، فجواسيس الكونت في كل مكان... ومعاقبته للذين يحاولون عصيان اوامره ولو في امور ثانوية وتافهة، عنيفة جداً، وقد تبلغ حد التصفية الجسدية! عديني بأنك ستتوخين اقصى درجات الحيطة والحذر، يا آنسة... لأن الكونت سيعرف فوراً في حال اكتشافك، انني انا التي اعطيتك المفتاح!

عانقتها روزالبا بحرارة واخلاص، قائلة:
- لا تقلقي، يا ريتا. فأنا لن ارضى ابداً بأن تتعذبي بسببي، ولو قليلاً.

ارتاحت ريتا الى حد ما، وقالت لحفيدة الكونتيسة وشبيهتها:
- سيذهب الكونت هذه الليلة لتناول العشاء مع بعض اصدقائه. وبمجرد خروجه من القلعة، يشعر جميع العاملين هنا بالراحة النفسية والجسدية ويجتمعون في المطبخ للأكل وتبادل الأحاديث. وعندها، سيكون الوقت مناسباً لك لكي تتسللي الى غرفة السيد ديابولو وتعودي منها... دون ان يراك احد. غرفته هي الثانية قرب المطبخ. سأحضر لك المفتاح، فور اطمئناني الى وجود الجميع حول مائدة الطعام.
- شكراً لك، يا ريتا، انا...

لم تتمكن روزالبا من اكمال كلامها، لأن مدبرة المنزل ركضت بأقصى سرعتها... وكأن الشجاعة والجرأة اللتين اظهرتهما قبل قليل، تحولتا خلال لحظات وجيزة الى خوف وجبن مرعبين. فتحت الشابة المتفائلة باب الغرفة، ودخلت الى تلك المنطقة المحرمة... التي كانت فيما مضى الجناح الخاص بجدتها. فوجئت بذلك الجو القاتم الموحش، وتفهمت على استغرابها تصرف ريتا وخوفها من الدخول.

ترددت بضع لحظات، ثم ارغمت نفسها على السير بسرعة بين قطع الأثاث المتعددة التي يعلو الغبار الكثيف اغطيتها الواقية. فتحت النافذة الكبيرة، فدخلت اشعة الشمس الى معظم انحاء الغرفة وحولتها من حجرة تشبه القبور الى قاعة رائعة الجمال... لا تحتاج الآن الا الى تنظيف الغبار المتراكم بكثافة. بدأت ترفع الأغطية واحداً بعد الآخر، وتتخيل كيف كانت جدتها ذات الذوق الرفيع تحيط نفسها بمثل هذه الثروة المادية الهائلة... للتعويض عن المجاعة المعنوية المذهلة التي واجهتها

طوال الوقت.

لاحظت روزاليا فوراً العدد الكبير من الصور والتماثيل لأنواع مختلفة من العصافير والحيوانات، توحي جميعها برغبة جدتها في التحرر من سجنها الكبير والانطلاق نحو الفضاء أو البراري الشاسعة. تمتمت بصوت حزين، قائلة:

- مسكينة، يا جدتي! لماذا لم تبتسمي ابداً؟

اقتربت من صندوق خشبي متعدد الأدراج، فتبين لها فوراً انه مصنوع باتقان شديد ومن اجود انواع الخشب في العالم. امسكت بالمقبض الذهبي للدرج الأعلى وجذبته بقوة نحوها، ظناً منها انه قد لا ينفتح اطلاقاً لشدة قدمه. انزلق الدرج بسهولة مذهلة كادت توقعها ارضاً، وظهرت في داخله مجموعات ضخمة من المناديل الجميلة المطرزة تحمل جميعها شعار عائلة روسيني وحرف الراء مكرراً. ذهلت في باديء الأمر، ولكنها تذكرت بسرعة ان والدها اختار لها اسم روزاليا تيمناً بجدتها الراحلة. وما ان اخرجت احد المناديل ورفعته بهدوء واحترام نحو وجهها، حتى افلتت منه بقايا وردة مجففة وتبعثرت غباراً فوق بقية المناديل. تذكرت شعراً جميلاً ورقيقاً للغاية عن الورد... ومنظره الرائع... ورائحته العطرة... وشرابه اللذيذ المنعش. تنهدت بحزن وتمتمت قائلة:

- ألم تشعري بأي سعادة على الاطلاق اثناء زواجك، يا جدتي المسكينة؟

شاهدت محفظة جلدية رقيقة في احدى زوايا الدرج، فدفعها شعور ضمني قوي الى فتحها. وبمجرد ان فعلت ذلك، برزت امام عينيها صورتان داخل اطارين من الفضة لصبي وبنت في سنواتها الأولى. لم تجد روزاليا اي صعوبة في معرفة ان هذين الطفلين الصغيرين ليسا الا والدها وعمتها. اعادت المحفظة الى مكانها وأغلقت الدرج برفق وحنان بالغين، ثم توجهت الى الجانب الآخر من الغرفة وفتحت الباب الجرار لخزانة تغطي ذلك الجدار بأكمله.

كانت جميع الملابس معلقة... ومعبأة بعناية فائقة داخل اكياس حريرية درزت اطرافها بإحكام، فادركت، ان ما من سبيل امامها لمعرفة ثوب الزفاف الا بواسطة اللمس... أو بتمزيق تلك الأطراف. اختارت الفكرة الأقل ضرراً، وبدأت تضع جانباً كل كيس تعتقد بأنه يحتوي على

الثوب المطلوب. وعندما تجمعت لديها بعد انتهاء عملية البحث والاختيار خمسة اكياس، بدأت تفتح اطرافها... الواحد تلو الآخر... بمقص صغير وجدته في علبة للخياطة والتطريز.

اخرجت ثوب الزفاف من الكيس الثالث ووضعته على السرير الكبير، ثم تراجعت بضع خطوات الى الوراء لتتمكن من التمتع بمنظره دفعة واحدة. اوه...! شهقت روزاليا بصوت مرتفع، وهي تتأمل النوعية الممتازة للقماش... والجمال الرائع الأخاذ للشكل الاجمالي... والاتقان المذهل في التطريز والخياطة. ولكنها شعرت فجأة بحزن وألم شديدين لمجرد تفكيرها بأنها سترتدي هذا الثوب ذاته بعد ثلاثة ايام فقط. هل يمكن لهذه الأناقة الساحرة ان تخفي تماماً ارتباكها وتوترها وارتجاف جسمها، وهي تواجه تلك النظرات القاسية لعريس لا يشعر نحو عروسه الا بالحقد والكراهية؟ خرجت من الغرفة راكضة ودون الالتفات مرة اخرى الى ثوب يرفض القدر على ما يبدو ان ترتديه عروس سعيدة يحبها فارس احلامها ويعشقها!

حل المساء، فجلست روزاليا في غرفتها تنتظر ذهاب جدها بتلهف بالغ. تصورت انها امضت دهراً قبل سماعها صوت الكونت، وهو يشكر سائقه على مساعدته في الدخول الى السيارة الكبيرة الفخمة. انطلقت من غرفتها كالسهم وأخذت تقفز على درجات السلم العريض بسرعة، لتصل الى الباب الأمامي الضخم، وتتأكد عبر فتحة صغيرة فيه من اختفاء الأضواء الخلفية لتلك السيارة. وعلى اثر ذلك، بدأت تسير في القاعة الفسيحة بعصبية... وهي تشكر الظروف التي اتاحت لها هذه الفرصة الذهبية. جدها موجود مع اصدقائه... ابريل في باليرمو... والخدم كلهم في المطبخ!

وفجأة... فتح احد الأبواب وظهرت منه ريتا، وهي تضع اصبعاً على شفتيها لتحذير روزاليا من اصدار اي اصوات ملفتة للانتباه. اشارت اليها لكي تتبعها بهدوء، وبدأت تسير في الممر المحاذي لمنطقة المطبخ. وقفت امام باب منفصل بعض الشيء عن بقية الأبواب، وأومأت الى قفله الضخم... الذي لم تشاهد روزاليا مثله الا في صور بوابات السراديب أو السجون القديمة. ثم اخرجت المفتاح الكبير، الذي كانت تخفيه تحت

مئزرها، وهمست بصوت ينم عن الاعتذار والأسف:
- انها غرفة مهجورة وغير مريحة اطلاقاً، ولكنني تأكدت بنفسي من ان السيد ديابولو يتناول طعاما لائقاً وكافياً.
اخذت روزاليا المفتاح بيد مرتعشة، قائلة لمديرة المنزل الخائفة:
- شكراً لك، يا رينا. لن امضي في الداخل اكثر من فترة قصيرة.
كان سلفاتوري مستلقياً على الأرض بكامل ثيابه، ويقرأ كتاباً على ضوء شمعتين صغيرتين. ومع انها لم تحدث اي ضجة أو حركة لدى دخولها، الا انه رفع رأسه فجأة وحدق بهذا المتطفل الذي لم يكن يتوقع حضوره. وفيما كانت تتأمل باشمئزاز بالغ الوضع السيء جداً لهذه الغرفة الخالية من كل شيء باستثناء طاولة ومقعدين خشبيين قديمين، قفز سلفاتوري نحوها وأمسك بكتفيها. قالت له بصوت متأثر حزين:
- انا آسفة جداً. لم اكن لأتصور ابداً انك تعيش في مثل هذه الأوضاع المزرية المروعة.
كان على وشك ان يصب عليها جام غضبه، ولكنه تردد لحظة ثم تطلع حوله وهز كتفيه باستهزاء، قائلاً:
- لقد عشت في اماكن اكثر تعاسة. وأنت ايضاً، الم يكن الكهف مثلاً...
شعرت روزاليا بأن وقتها لن يسمح لها بالتحدث اليه طويلاً، واطلاعه على كل ما يجول في خاطرها. ولكن كلمة الكهف اضطرتها للتحول قليلاً عن الموضوع الهام، الذي تحملت وريتا مخاطر كبيرة لمجرد ابلاغه اياه. قالت له، وهو يتركها ويبعد وجهه عنها:
- لم اخبر رجال الشرطة عن مكان وجودك، ولم اكن راغبة اطلاقاً في وقوعك في الأسر. ولكن احدهم شاهد الشال الذي لم اشعر بفقدانه اثناء هربي، معلقاً على غصن شجرة امام الكهف. انا...
- لا داعي للاعتذار! كنت محقة تماماً في الانتقام مني، لأنني تصرفت معك بأسلوب حقير وتافه.
تصورته طوال الوقت رجل مجرد تماماً من العواطف والأحاسيس الرقيقة، ولكن صوته بدا مشبعاً بمرارة الادانة الذاتية. حاولت ايجاد الكلمات المناسبة للتخفيف من عذابه النفسي المؤلم، ولكنه استمر في تقديم

الاعتذار... البالغ الصعوبة بالنسبة لرجل مثله:
- لا اجد اي تبرير أو تفسير لما حدث معي تلك الليلة! كنت اشعر بنشوة بالغة على اثر خروجنا من تلك الحفلة اللعينة، ولكنها كانت المرة الأولى في حياتي التي تدفعني فيها نشوتي الى التهور الأرعن والتصرفات الطائشة. لا اتوقع منك تصديقي اذا قلت لك، ان آخر شيء كنت انوي القيام به هو الحاق الأذى بك... وبخاصة على ذلك النحو المشين!
غمرها الحزن والأسى وهي ترى العذاب النفسي الشديد الذي الحقته به، بسبب بضع كلمات سخيفة حمقاء قالتها بنية طيبة وصافية لانقاذ حياته. لقد طعنت شرفه واحترامه لنفسه، وجميع مبادىء الأخلاق والشهامة التي يؤمن بها! شهقت بتأثر شديد، وقالت:
- توتو...! ارجوك، لا تعذب نفسك، فانت لم تفعل شيئاً...
- لم افعل شيئاً!
استدار نحوها بحدة وعصبية بالغتين، وأضاف قائلاً بصوت يرتجف سخطاً وغضباً:
- هل علمك مجتمعك المخملي المتحرر اعتبار جريمة نكراء كالاغتصاب، امراً عادياً لا اهمية له اطلاقاً!؟
انهمرت الدموع من عينيها وهي تسمع تلك الكلمات القاسية، وترى الاحتقار الشديد في نظراته الملتهبة، فضربت الأرض بقدمها وصرخت به باكية:
- ولكنك لم تفعل اي شيء على الاطلاق، فقد...
قاطعها بلهجة قاسية جداً، قائلاً:
- اعترف بانني كنت في ذروة النشوة... مجنوناً... طائشاً، وقد اغمي علي لأول مرة في حياتي! هناك امور لا ازال اذكرها بوضوح تام... امور ستظل الى نهاية عمري عبئاً ثقيلاً مرهقاً على ضميري. كيف سأنسى مثلاً العناق التي ارغمتك على تحمله، وأصوات الاستغاثة الحزينة والباكية التي كنت تطلقينها، وثوب عمتي الذي رميته بعيداً عنك؟ لا اذكر اي شيء آخر بعد ذلك، ولكن المنطق يقول ان ما من رجل طبيعي يصل الى ذلك الحد... ويتوقف بشكل تام وحتى النهاية!
ثم وجه اليها نظرات حزينة، ومضى الى القول:

- لو انني فعلاً من الأشخاص المؤمنين حقاً بمباديء الانتقام، لكنت الآن اسعد انسان في العالم... بعد انتقامي بتلك الطريقة الوحشية البربرية من حفيدة عدوي. ولكنه يبدو ان السنوات الطوال التي امضيتها مع اناس متحضرين، قد تركت في نفسي وشخصيتي اثاراً اكبر مما كنت اتصور. اصبحت رقيقاً الى حد ما، بعد ان تم تدجين الوحش في داخلي، ولكنني لست داجناً بشكل كاف، لكي اذعن لأوامر جدك وارضخ اليها... كلما رفع سوطه وهددني به.

عاد اليه فجأة بعض عنفوانه، فرفع رأسه بشموخ واضاف قائلاً:

- حكم علي الشرف بأن اتزوجك بعد تلك الحادثة، ولكن جدك لم يعرف انني كنت قد قررت ذلك فعلاً قبل اذعانه لمطالبي.

ثم ابتسم بزهو وانتصار، وقال:

- لقد نلت منه اخيراً، ذلك الثعبان العجوز! ارغمته على الرضوخ الى مطالب الفدية، حتى يستفيد ابناء قومي... وهذه النتيجة الرائعة وحدها ستخفف عبء فيودي.

تذكرت روزاليا قولاً مأثوراً عن الزواج، وكيف يعتبر رجل الزوجة سلاسل تقيده... فيما يراها الآخر جناحاً ثانياً يساعده على التحليق بسعادة وهناء. اساء سلفاتوري فهم الابتسامة الخفيفة التي ظهرت على محياها، فقال لها:

- يبدو انك مصرة على القيام بدور ملاك الشيطان! لدينا اعتقاد في هذه البلاد، بأن جميع الزيجات الناجحة تبدأ بمشكلة أو خصام. عزي نفسك بهذه الفكرة، لأنها اذا كانت صحيحة... فسوف تتحول اشواكنا الى ورود ويتطور زواجنا الى سعادة.

ارادت ان تعلق على كلامه، ولكنها سمعت طرقة خفيفة متوترة على الباب. انها ريتا... تحثها على الخروج فوراً! سارت بهدوء نحو باب سجنه، دون الالتفات مرة واحدة الى الوراء... بسبب تأثرها وانزعاجها. حاولت اطلاعه على الحقيقة، ولكنه رفض الاصغاء اليها! اما الآن، فيبدو ان ينبوع كلامها قد جف. هل حدث هذا الجفاف المفاجيء لأنها لا تهتم به الا قليلاً، ام لأن امره يهمها الى درجة فائقة؟

١٢- مأدبة الصمت!

تلاحقت أسئلة ابريل بشكل مزعج ومرهق، بعد أن اقتحمت غرفة ابنة خالها صبيحة يوم زفافها... صارخة متهمة بعصبية بالغة:

- قيل لي الآن ان زواجك سيتم اليوم... هذا اليوم بالذات! لم يصدر عنك أي شيء يوحي بذلك، ويبدو أنني أنا آخر من يعلم بمثل هذا الأمر. كيف يمكنك معاملتي بهذا الشكل... أنا ابنة عمتك وصديقتك المفضلة؟ ألم تفكري أيضاً بوالدتك؟ الا يجب ان تكون موجودة هنا، لحضور حفل زفافك؟

كانت روزاليا قد فضلت الانتظار حتى اللحظة الاخيرة، لابلاغ قريبتها عن الموعد المحدد للزواج... وذلك مخافة أن تؤدي المجادلات المحتمة الى اضعاف وضعها النفسي القلق والمتداعي. وبما ان المجابهة التي كانت

تخشاها حدثت الآن، فقد قررت مواجهتها بهدوء وشجاعة. أرغمت نفسها على التحدث برباطة جأش مدهشة، وقالت:

- آسفة، يا ابريل، لأن تحفظي الفائق آلمك وأغضبك. أردت اطلاعك على كل شيء، ولكنني كنت أدرك تماماً صلابة الاعتراضات التي ستواجهني.

تظاهرت بالابتسام، ثم أضافت قائلة:

- انت تعرفين بالطبع انك خصم قوي وبارع، وهذا هو وحده سبب ترددي في التحدث اليك عن هذا الموضوع الهام حتى الآن. اقترح عليك بأن تجلسي، لأنني على وشك ابلاغك حقائق مذهلة قد تصيبك بصدمة عنيفة.

أحست ابريل بأن ابنة خالها تعاني من عذاب وتوتر مرهقين، وضغوطات نفسية هائلة، فأطاعتها فوراً ودون تردد. كما أنها ارغمت نفسها على عدم الاعتراض أو توجيه المزيد من الاسئلة، طوال الفترة التي استغرقتها رواية روزاليا لما حدث معها... ابتداء من اللقاء الاول مع سلفاتوري في مطار باليرمو، وانتهاء بالكذبة الكبيرة التي أطلقتها لانقاذ حياته. ومع أنها تحدثت بصورة سطحية فقط عن الأيام الثمانية التي امضتها معه في الكهف، الا أن بقية التفاصيل كانت كافية لشحوب وجه ابريل واصابتها بذهول شديد أخرسها بعض الوقت.

حدقت بها طويلاً وهي تأمل في مشاهدة حركة أو سماع كلمة، توحي بأن روزاليا تمازحها. وعندما تأكد لها أن قريبتها جادة تماماً في حديثها، اخذت نفساً عميقاً وبطيئاً وقالت:

- يشعر سلفاتوري بأنه مضطر للزواج منك، لأنك اوحيت له باحتمال كونك حاملاً. وهذا يعني بالتأكيد أن ثمة علاقة قامت بينكما، والا لكان قد سارع الى نفي كلامك جملة وتفصيلاً... ورفض بالتالي تحمل المسؤولية.

احمر وجه روزاليا حياء وخجلا، وقالت لابنة عمتها:

- لقد خدعته. كانت الظروف مواتية له لكي يقدم على ما أراد الاقدام عليه... وكان على وشك تحقيق ذلك...

تلعثمت وارتبكت، وقررت الاكتفاء بهذا القدر من التفاصيل الحساسة المحرجة. ثم سارعت الى القول:

- ولكنه لم ينجح! اغمي عليه بسبب الحبوب المنومة، التي كنت قد وضعتها خلسة في قهوته.

- لا شك في أنه تعرض للاغماء... في اللحظة الاخيرة! يا للرجل المسكين! لو لم أكن مستاءة منه الى هذه الدرجة الكبيرة، لشعرت الآن بتعاطف قوي معه. فهو مستعد لتحمل المسؤولية والعقاب، مع انه ليس متأكداً اطلاقاً من ذنبه. هل خطر ببالك ماذا سيحدث لك، عندما سيكتشف كذبك... ولم يعد يفصله عن ذلك سوى وقت قصير؟ أنت لا تتعاملين مع رجل بريطاني هادىء الاعصاب، يا روزاليا! ديابولو مهووس برجولته حتى التطرف! انه يخيفني... وكنت أتصور ان مجرد التفكير بالزواج من رجل كهذا، سوف يرعبك انت بالذات.

ظهرت ابتسامة غريبة على شفتي روزاليا، فعيل صبر ابريل واستشاطت غضباً. هبّت واقفة بانفعال بالغ نتيجة سذاجة ابنة خالها، ولاحساسها ضمنياً بأنها تتحمّل قسطاً وافراً من مسؤولية هذه التطورات المخجلة. قالت لها بتلهف صادق:

- روزاليا! أرجوك ان تكوني واقعية! أعرف جيداً انني طالبتك بالتخلي عن تحفظاتك الشديدة والتمتع باجازتك الى أقصى درجة، ولكنني لم أتصور اطلاقاً أن الامور ستصل الى هذا الحد! هيا بنا... لنعد الآن الى بريطانيا، حتى دون جمع امتعتنا أو توضيب حقائبنا! كل ما نحتاجه الآن هو جواز السفر... وسنجد وسيلة نقل الى المطار، بطريقة أو بأخرى!

رفضت روزاليا عرض ابريل، قائلة بهدوء:

- لا أقدر، فسوف تتعرّض حياة سلفاتوري الى الخطر.

فار الدم الصقلي في عروق ابريل، فصرخت بحدة فائقة:

- اللعنة على سلفاتوري! اللعنة أيضاً على الجد روسيني، وكل شخص آخر من بني قومه الذين لا يعرفون الا لغة العنف! ليقتلوا بعضهم بعضاً اذا كانوا يريدون ذلك، فعمليات الانتقام البدائية والسخيفة لا تهمنا... ولا علاقة لنا بها اطلاقاً!

ظهر الاصرار والعناد بجلاء في وجه روزاليا وملامحها، فأطلقت ابنة عمتها السهم الأخير في جعبتها... بعد اختيارها له هدفاً ضعيفاً. قالت لها:

- كيف تتصورين شعور أمك، عندما تكتشف ان ابنتها الوحيدة والطيبة سارعت الى الزواج من رجل غريب. . . دون ابلاغها او انتظار مجيئها لحضور حفل الزفاف؟

أبعدت روزاليا وجهها بسرعة لاخفاء معالم الحزن والألم في محياها وعينيها، وقالت:

- كفى. . . ! الأمور سيئة بما فيه الكفاية. . .

قاطعتها ابريل بلهجة عنيفة قاسية:

- وستصبح أكثر سوءاً. . . صدقيني! هل توقفت لحظة للتفكير جدياً بطبيعة الحياة التي ستواجهينها، بين أولئك الناس الذين لا يتمكن أحد غيرهم من فهم عاداتهم وتقاليدهم الغريبة؟ كلمة الحب مفقودة من قاموسهم، والزواج بالنسبة اليهم مجرد صفقة تجارية. . . اهم ما فيها المبلغ التي ستدفعه العروس أو أهلها. أعرف ذلك جيداً، لان أمي حدثتني مراراً عديدة عن هذه العادات الغريبة والمستهجنة. هل تتصورين ان الوقاحة تصل بأهل العريس، الى درجة ارسال مخمن محترف لتقييم المساهمة غير النقدية؟ نعم، يا آنسة. . . فخلال هذه اللحظة بالذات توجد مع الجد روسيتي في مكتبه، عجوز محتالة وصلت قبل قليل، زاعمة أنها عمة ديابولو. . . وتريد التفاوض بشأن الزواج عوضاً عن والدته الراحلة! تقضي العادة في الأوضاع الطبيعية بأن تكون الزيارة لأمك. . . للحصول على الموافقة، والمباشرة فوراً بالاستفسار عما ستقدمه العروس. وبالنظر الى غياب والدتك فقد وافقت العجوز المحتالة على التفاوض مع جدك. انها تبدو أقوى منه، وأشد حنكة ودهاء!

- انها العمة جيوسيبينا! أوه، كم أنا سعيدة لتمكنها من الحضور!

استغربت ابريل سرور ابنة خالها، فألقت بنفسها على السرير وقالت بصوت ضعيف يوحي بعدم القدرة على متابعة النضال:

- يبدو أنك مصممة على المضي في هذه المسألة حتى النهاية أليس كذلك؟ رباه. . . ماذا حدث لك، يا روزاليا؟ ألم تسمعي أي كلمة قلتها لك؟ الا يهمك بتاتاً ان الصفة الاساسية والأهم في الزوجة الصقلية، هي القدرة اللامتناهية على العمل الشاق والمتواصل؟

- ولكنني أحب العمل الشاق والمتواصل.

ثم أضافت بلهجة رقيقة وحنونة، عندما لاحظت ان ابنة عمتها أخذت مزاحها على محمل الجد:

- أنت التي لم تسمعي كلامي، يا ابريل. فلو أنك اصغيت الى ما قلته لك في البداية، لفهمت ان الزواج الذي يتم نتيجة الضغط والاكراه ليس ملزماً. سأتزوج سلفاتوري على نحو صوري، ولمجرد التظاهر بتلبية مطالب الجد روسيتي. وفي مثل هذا الوقت في يوم غد ان شاء الله، قد أكون واياك في بريطانيا. . . بعيدتين عن جميع هذه المحن العصيبة والرهيبة. كوني على استعداد تام للهرب معي الى المطار، فور تأكدي من سلامة سلفاتوري.

ارتاحت نفسية ابريل بشكل ملحوظ، وبدأت تحدث ابنة خالها على الفور عن العربة التي أتت بها عمة ديابولو. قالت لها، وكأن روزاليا لم تشاهدها من قبل:

- انها من ذلك النوع الغريب، الذي لا يستخدمه بالتأكيد الا القرويون. تصوري انه رسمت على جانبيها ومؤخرتها مناظر من القصص الشعبية، مثل بعض المعارك القديمة الوحشية وأبطال الأساطير والروايات الخيالية.

لم تعلّق روزاليا على كلام ابريل الساخر، لأنها تعتبر تلك العربة وعجلاتها قطعة فنية رائعة. . . وبخاصة لأنها من صنع عمال مهرة، لم يستخدموا في عملهم سوى المعدات البدائية البسيطة التي كانت متوفرة لديهم في ذلك العصر. وتذكرت لدى مغادرة ابريل، ان سلفاتوري أخبرها مرة عن الطريقة الرائعة التي يزيّن بها حصان العربة، أثناء الاعياد والاحتفالات والمناسبات الخاصة.

أرادت أن تنزل الى القاعة، لمقابلة العمة جيوسيبينا والترحيب بها، ولكن ربتا المخلصة شعرت بأنها قد تريدان التحدث على انفراد، فأحضرت السيدة العجوز الى غرفتها. لاحظت روزاليا فوراً ان العمة جيوسيبينا خلعت ثياب الحداد السوداء، وارتدت بدلاً منها تنورة طويلة ذات ألوان زاهية وقميصاً ناصع البياض. . . كما وضعت على رأسها شالاً مطرزاً يتدلى على كتفيها.

ظلت واقفة في مكانها تترقّب بانفعال صامت، ردّ فعل امرأة اعتبرتها

صديقة ومنحتها ثوباً كانت تحتفظ به لابنة لم ترزق بها. . . وهي لا تعلم أنها ابنة عائلة روسيني المكروهة. ولكن العمة جيوسيبينا نفسها بدت مرتاحة جداً، ولا تشعر بأي حرج أو دهشة مما يحيط بها من مظاهر الترف والثراء. اقتربت منها بثقة وهدوء ووضعت يديها على رأس صديقتها الشابة، دونما أي تفسير أو ايضاح. ثم تراجعت الى الوراء خطوة واحدة، وقالت لها بلهجة آمرة:

ـ أعطني يدك.

اطاعتها روزاليا دون تردد، ولكن باستغراب وحيرة شديدين. ألبستها العجوز فوراً خاتماً ذهبياً ودست في يدها منديلاً صغيراً مطرزاً، ثم قالت بعنفوان وشموخ:

ـ كان من الضروري القيام بهذه المراسم التقليدية، أثناء الاحتفال بخطوبتك. ولكن بما أن توتو لم يذكر لي شيئاً عن مخططاته، ولم يتصرف أي منكما بطريقة توحي بأنكما على وشك اعلان خطوبتكما، فقد اضطررت الى تأجيل القيام بواجبي حتى اليوم. على أي حال، فسوف يسمع مني توتو الخبيث تأنيباً قاسياً على هذه السرّية التي لم يكن لها ضرورة اطلاقاً. لو أنه قدم لك آنذاك وردة حمراء أو شريطاً أحمر لتربطي به شعرك، لكنا ادركنا جميعاً نواياه تجاهك. ولكنه لم يفعل شيئاً من هذا القبيل، ففوجئنا كلنا بما حدث.

ثم تنهدت، ومضت الى القول:

ـ علمت في وقت متأخر من مساء امس أنكما ستتزوجان اليوم، فاستيقظت مع الفجر وبدأت رحلتي فوراً كي أصل قبل الاحتفال. يجب الاّ تتم مراسم بالغة الأهمية كهذه، دون حضور شخص واحد على الأقل من أفراد العائلة!

وجّهت فجأة الى عيني روزاليا نظرات حادة كالأبر، وقالت لها:

ـ اخبريني، يا صغيرتي. . . هل أنت متأكدة من أنك تهتمين به الى درجة كافية، بحيث تتمكنين من التخلّي عن كل هذه الرفاهية وهذا الترف؟ هل أنت قوية بما فيه الكفاية لتتركي هذا المكان الذي يؤمن لك كل ما تحتاجين اليه، كي تعيشي في قمم الجبال الوعرة الصعبة؟

ثم أضافت بلهجة حازمة وقاسية:

ـ لن يتخلى توتو بتاتاً عن ابناء قومه، وسيظل دائماً الرجل الذي يتوقع خضوعاً تاماً من زوجته.

لم يكن لدى روزاليا الوقت أو الكلام الكافيان، حتى تشرح للعمة جيوسيبينا بأنها لا تتزوج سلفاتوري الاّ لانقاذ حياته ومنحه حريته. فاختارت جواباً يحمل معنيين، وقالت لها بصدق تام:

ـ سأقوم بكل ما هو ضروري لأجل سعادته.

بدا الارتياح على وجه السيدة العجوز، وقالت:

ـ سأذهب الآن اذن، لأنني متأكدة من أن لديك اعمالاً كثيرة تحتاج الى كل دقيقة من وقتك.

سارت نحو الباب بخطوات سريعة، ولكنها توقفت فجأة ثم وجهت الى روزاليا نظرة تحمل الكثير من الامتنان. . . وقالت:

ـ يحتفل بالزواج عادة كبداية جديدة. . . أما زواجكما فسوف يحقق هدفاً اضافياً بالغ الاهمية، وهو انهاء حرب ثأرية وانتقامية مريرة. فبمجرد ان يتزين اصبعك بخاتم توتو. . . يتوقف النزاع فوراً وتنتهي الفترة الدموية التي طالت كثيراً. لا تكوني خجولة مع زوجك، يا حبيبتي. . . فهو ليس شيطاناً، بل ملاكاً حولته الظروف القاسية اللعينة الى ما هو عليه الآن. تمسكي جيداً برسن الزوجية الصالحة، وسيتمكن قلبك الطاهر من ابعاده عن الجحيم وحمله الى النعيم!

وصل الجد روسيني في تمام العاشرة لمرافقة حفيدته، الى حيث ينتظرها عريس متردد ومتوتر الاعصاب. وعندما خرجت روزاليا من الغرفة الداخلية، حيث كانت ترتدي ثوب الزفاف، تسمر الجد في مكانه وأخذ يتأملها بذهول واعجاب منقطعي النظير. لا شك في انه تذكر تلك اللحظة التي خفق فيها قلبه الأقل قساوة وتحجراً، لدى مشاهدته عروسه الجميلة تقف أمامه بخجل وحياء. ظهرت الرقة في عينيه، وقال لحفيدته بصوت يرتجف تأثراً:

ـ تبدين رائعة جداً، يا حبيبتي. . . اكثر بكثير مما يستحقه ديابولو.

وكان ذكر اسم عدوه اللدود كان كافياً لايقاظه من أحلام اليقظة والذكريات، فقد مدّ ذراعه بعصبية نحو روزاليا وقال لها مقطباً حاجبيه:

ـ تعالي، فعريسك ليس رجلاً صبوراً وهادىء الأعصاب!

وصلا الى الكنيسة الصغيرة التي بنيت قبل مئات السنين، فبدا سلفاتوري كحيوان شرس قيّد بسلاسل حديدية موجعة ووضع لتوه داخل قفص صغير ضيق. أحس بدخولها، فتوقف فوراً عن الحركة وأخذ يحدق بروزاليا . . . فيما كانت تسير نحوه بخطى بطيئة عبر الممر القصير. كانت نظراته قاسية جداً، فشحب وجهها ولم تعد ترى احداً او تسمع شيئاً. وعندما بدأت ترد على اسئلة الكاهن المعتادة بكلمة نعم، احست روزاليا بانها في عالم آخر يلفه الظلام الدامس والصقيع المميت. ولكن . . . ما ان أمسك سلفاتوري بيدها وألبسها خاتمه، حتى شعرت بنار حارقة تشتعل في داخلها وبدأت تسمع أصوات اجراس وانغام ملائكية حنونة وناعمة.

لم تنتبه الى انتهاء المراسم، الآ عندما أصبحت في منتصف الطريق نحو الخارج، ولاحظت انها تتعلق بذراع . . . زوجها بقوة. لم يعد هناك وجود لروزاليا روسيني، أصبحت الآن السيدة ديابولو . . . الامرأة التي تجمدت على وجهها ملامح السكينة والهدوء، وبدا ان قلبها الذي يخفق بقوة جنونية هو الجزء الوحيد الذي لا يزال حياً في جسمها!

خرجا الى باحة الكنيسة، فركض نحوهما الصبية الصغار وأخذوا ينثرون الورود والرياحين أمامهما . . . فيما كان اهلهم الواقفون كحرس شرف حتى أولى الدرجات المؤدية الى القلعة، يحيونهما ويصفقون لهما. توقفت روزاليا قبل دخول القلعة، واستدارت نحو المهنئين لتوجه اليهم تحية شكر وامتنان. كانت تأمل في ان تؤدي هذه البادرة، وما رافقتها من ابتسامات توحي بالفرح والسعادة والهناء، الى اخفاء الصدمة القاسية والحزن الشديد اللذين تشعر بهما.

لقد قالت لابنة عمتها ان مراسم الزواج ستكون صورية بحتة، ولن يضطر أي من العروسين الى الشعور بالالتزام بها. ولكنها تحس الآن بانها ربطت نفسها بشكل نهائي لا رجوع عنه، وهي تردد بجدية تامة قسم الزواج والمحبة والاخلاص . . . وتسمع سلفاتوري يقول الكلام ذاته، ولو بلهجة قاسية وحادة . بدا لها آنذاك، وكأنه يتقبل العقاب على خطاياه . . . او كأن زواجه منها حكم صارم للغاية يرحب به كثمن لانتصاره. ومع ذلك . . . فان الكلمات الاولى التي وجهها اليها، اثناء انفرادهما لفترة وجيزة في القاعة الكبرى، لم تنم عن اي شعور بالمصالحة والوفاق . . . بل

ببقاء احساس قوي بالحقد والاحتقار في احدى زوايا قلبه. فقد أمسك ذقنها بأصابع شرسة وحدق بوجهها الشاحب لحظات مطولة، قبل ان يقول لها:

ـ والآن . . . هل ستتمكنين أيتها الزوجة العزيزة، من اقناعي بانك بديل عادل وثمن معقول لحريتي؟ اظهر الثعبان العجوز تصميماً على التخلّص منك، لا يشكل اي اطراء لك! ولكني لا استغرب ذلك، لانه من الاشخاص المستعدين لبيع حصتهم من الشمس والهواء بغية تحقيق اغراضهم واهدافهم البعيدة المدى!

تجرأت على مواجهة غضبه الحاقد وسخطه المؤذي، بالقول:

ـ انا لست قطعة أثاث يملكها جدي!

أجابها قائلاً، بلهجة ثابتة واكيدة جمدت الدماء في عروقها:

ـ لا، طبعاً لا، فالملكية الكاملة والتامة أصبحت لي دون سواي! ولكن . . . لماذا أشعر بأن الصفقة لم تكن لصالحي، وبأنني وقعت فيها ضحية خداع شرير؟ هل لأنني حصلت على الطريدة بطريقة سهلة، وحرمت لذة المطاردة والصيد؟

ساد التوتر الشديد أجواء المأدبة، التي أقامها الكونت في قاعة الطعام الكبرى. لم تتحدث ابريل الاّ قليلاً، واكتفت بتوجيه نظرات العداء الصامت الى سلفاتوري . . . الذي تجاهلها بصورة شبه تامة، وركز اهتمامه كاملاً على عمته. وفي حين جلست العمة جيوسينا كأبي الهول ورفضت تناول أكثر من لقمة واحدة من كل طبق طعام يقدم اليها، حاول الكونت التظاهر بتناسي الفوارق الكبيرة بين الطبقتين الاجتماعيتين . . . واخذ يتحدث بمرح عن مواضيع مختلفة ومتعددة. ولكن حديثه لم يدم طويلاً، لأنه هو نفسه وقع بعد دقائق قليلة ضحية الصمت المطبق الناجم عن التوتر البالغ والنظرات القاسية.

ظل هذا الوضع على حاله لبعض الوقت، فأحس سيد القلعة بأن تقاليد الضيافة تفرض عليه القيام بخطوة مجاملة نحو عمة . . . صهره! قال لها، مشيراً الى ابريق عصير احضر للتو:

ـ هل تودين مشاركتنا بكوب من هذا العصير النادر، الذي احضرت منه كمية محدودة من روما . . . للمناسبات الخاصة فقط؟

- لا شكراً . . فنكهته وطعمه يليقان بالمتحضرين الاثرياء . . . وليس بالفلاحين الفقراء مثلي. اني أفضل العصير العادي، البدائي الذي نصنعه نحن بأيدينا ومن فاكهة أرضنا وجبالنا، والذي يشبه بحدته وعدم رقته طبيعة أبناء قومنا وشعبنا.

لاحظت روزالبا فوراً مدى انزعاج جدها، وانفعاله الصامت. فهو يفضل التحدث مع امثاله من أفراد الطبقة الارستقراطية الثرية، الذين يتمتعون بقدرة فائقة على التخاطب بذكاء ودهاء في أي موضوع يطرح عليهم. أما رد العجوز القروية، المتسم بالصدق والصراحة المتناهيين، فقد أثار سخطه وأزعجه الى درجة كبيرة. وظهرت معالم الاستياء في نبرة صوته، عندما وجه حديثه الى سلفاتوري قائلاً:

- أعطيت أوامري قبل يومين لتجهيز قصري الواقع على شاطىء البحر، بكافة وسائل الراحة والرفاهية، لتمضيا فيه شهر العسل بسعادة وهناء. يمكنكما البقاء فيه الى ما شئتما، والحصول على أي شيء اضافي تريدانه. وعندما تصبحان مستعدين للذهاب، سأطلب من اليساندرو نقلكما بسيارتي.

ضرب سلفاتوري الطاولة بيده، بقوة أفزعت روزالبا واذهلتها، ثم قال بحدة بالغة:

- لا، أيها الكونت، لن أفعل ذلك اطلاقاً! فزوجتي ستذهب الى حيث أريد أنا، ومتى أريد، وبوسيلة النقل التي سأختارها بنفسي!

وجّه الرجلان الى بعضهما نظرات مشبعة بالحقد والعداء، في أول مجابهة عنيفة تحدث بينهما بعد المصاهرة. اصر سلفاتوري على ممارسة حقه كاملاً، في التصرف كرجل يتمتع بسلطة مطلقة في بيته . . . وعلى زوجته. ومع ان الكونت لم يوافق على ذلك بصورة فورية، الا أن التقاليد الصقلية الصارمة التي يتقيد بها . . . جعلته يعترف بالهزيمة أمام سيد عائلة ديابولو. ولكن رضوخه لم يأت عادياً وانهزامياً، بل قال لعدوه الشاب بلهجة مشبعة بالحقد والكراهية . . . أثارت ازدراء روزالبا واشمئزازها:

- تسللت الى قصري في بداية الأمر، كخفاش يستعين بظلام الليل وظلاله. عرفت عندئذ أن وجودك نذير شؤم وشر، وبأنك ستحدث الكثير من المتاعب والمشاكل. أعتن بحفيدتي جيداً، يا ديابولو . . . لانه لو مست

شعرة في رأسها بأذى، فسوف أجد لذة بالغة وسعادة فائقة في معاملتك بالطريقة ذاتها . . . التي يطبقها رفاقك المتوحشون مع الخفاش الذي يحتقرونه. سوف يلقى القبض عليك . . . وتقتل بعد تعذيب مرير، ثم تدق الى باب حظيرة الحيوانات بالمسامير . . . ورأسك نحو الأسفل!

١٣- هديل الحمام

لم تتوقف ابريل، حتى في اللحظات الأخيرة، عن القيام بمحاولة يائسة لثني ابنة خالها عن الذهاب مع سلفاتوري ديابولو. قالت لها، وهي تودعها على بوابة القلعة:

ـ وعدت بأن تكون مراسم الزواج نهاية لهذه اللعبة السخيفة، فلماذا تذهبين معه الآن؟ الا تعرفين أنك ستصبحين ملكه، ولن يسمح لك بعد ذلك اطلاقاً بمغادرة صقلية؟

حثت روزاليا ابنة عمتها على فهم مشكلتها بصورة أكثر جدية، قائلة بلهجة هادئة:

ـ لست مضطرة للمضي قدماً في هذه التمثيلية المزعجة، الا لفترة قصيرة جداً. فهذان الرجلان يكرهان بعضهما الى درجة مذهلة. . . ولن

اشعر بالاطمئنان التام لأعود الى بريطانيا، قبل التأكد من وجود سلفاتوري بعيداً عن متناول جدي. لا تقلقي، يا ابريل، فسوف أعود خلال ساعات قليلة.

احست روزاليا في تلك اللحظة، بأن سلفاتوري ديابولو يتعمد اثارة غضب الكونت وسخطه.

برقت عيناه بالارتياح والرضى التامين، عندما تطلع نحوها وقال بلهجة ساخرة:

ـ ابتسمي لجدك، يا ذات الوجه الملائكي! أكّدي له بأنك سعيدة ولست ذاهبة الى الجحيم، كما يتصور ويعتقد!

اغضبتها تلك العبارة المازحة القاسية، ولكنها سيطرت على أعصابها وجلست في مؤخرة العربة. . . فيما قفز سلفاتوري الى مقعد القيادة، بعد ان اجلس عمته قربه. أما الكونت، الذي لم يتفوّه بكلمة واحدة، أو يرفع يده مودعاً، فقد بدا في وضع بالغ الصعوبة. . . لأنه يحاول جاهداً كبح جماح حنقه وحقده.

وصلت العربة الى الطريق العام، فبدأ الحصان يعدو بسرعة مذهلة. تقوقعت روزاليا المنهكة القوى والمرهقة الاعصاب، في زاوية العربة الصغيرة. . . وغطت في نوم عميق، ذلك لأنه لم يغمض لها جفن طوال الأيام الثلاثة الماضية. هل نامت خلال تلك الفترة الوجيزة، لأنها شعرت بالارتياح لتجاوز العقبات الأكثر صعوبة وخطراً في مهمتها الدقيقة والحاسمة؟

انتفضت جالسة في مكانها، بعد مضي ساعتين على مغادرتهم القلعة، لتفاجأ بتوقف العربة على أحد المنعطفات القاسية. شاهدت سلفاتوري، عبر عينيها شبه المغمضتين، وهو يقفز من العربة. . . بعد ان سلّم الرسن الى عمته وقبّلها على خدها. ثم اقترب من روزاليا ورفعها من العربة، قائلا:

ـ هيا بنا، أيتها الزوجة الناعسة!

تثاءبت رغماً عنها، قبل أن تسأله بصوت ضعيف هادىء:

ـ الى أين سنذهب؟

ـ الى عش الغرام وشهر العسل، أيتها العروس الطفلة! وهل من أي

مكان نذهب اليه، يا صغيرتي؟ سنفترق هنا عن العمة جيوسيبنا، لأننا متابع رحلتنا بالسيارة.

لم يبدُ على عجلة من أمره لانزالها الى الارض، فتصارعت الافكار في رأسها وتضاربت المشاعر في قلبها. لاحظت أنها طوقت عنقه بذراعيها، بصورة عفوية وغبية، عندما رفعها من العربة... وبأنها تشعر بارتياح لا يمكن تفسيره أو تبريره، وهي مستلقية بين ذراعيه القويتين. كان وجهه قريباً جداً منها، بحيث راحت أنفاسه الدافئة والناعمة تداعب وجنتها. احنى رأسه فوق وجهها وأخذ يحدق بها، فيما اختفت ابتسامته الساخرة بسرعة مخيفة.

انتبهت روزاليا فجأة الى النظرات المرحة التي وجهتها العمة جيوسيبنا، فتملصت من بين ذراعيه وابتعدت عنه بسرعة... وهي تعاتب نفسها بعنف شديد على هذا الشعور الغريب المستهجن. أمسك بيدها وسارا نحو اللاندروفر، فرفعت العجوز السعيدة يدها مودعة وقائلة بسرور واضح:

ـ تمتعا بشهر العسل، الى أقصى درجة! لا تتوقفا عن اغضاب بعضكما، فغضب الحبيبين يجدد حبهما ويعزز قوته وثباته!

اطلق سلفاتوري العنان لسيارته، دون أي تعليق على كلام عمته. تصورته روزاليا في تلك اللحظات الحساسة، كأنه خفاش ينطلق من الجحيم. أمسكت بباب السيارة، بكل قوتها، كيلا يرتطم رأسها أو جسمها بأي مكان... نتيجة السرعة الجنونية التي لا مبرر لها، وبخاصة على تلك الطرقات الجبلية الوعرة.

لم يتحدث أي منهما الى الآخر، طوال الساعات الثلاث التي استغرقتها رحلتهما نحو الطرف الآخر من الجزيرة. كانت شمس المغيب تودعهما بأشعتها البرتقالية الخلابة، عندما وصلا الى منطقة ساحلية جميلة... يشرف عليها بهيبة وقوة مخيفتين جبل اتنا. لاحظت روزاليا فوراً تلك القرى الصغيرة وأراضيها الزراعية الخصبة، على السفوح المنخفضة لجبل البركان. ولكنها شعرت بالرعب والهلع، عندما امتد نظرها الى المناطق العالية... وشاهدت تلك الصحارى الشاسعة التي لا يغطيها الا الرماد. لا شك في أن الحمم البركانية الحارقة والمدمرة، التي يطلقها البركان الثائر بين الحين والآخر، تحرم تلك المنطقة بكاملها من أي أشجار أو نباتات.

توقفت السيارة... أخيراً! النجوم البراقة منتشرة في السماء الصافية، كحبيبات اللؤلؤ التي سلّطت عليها أنوار قوية كاشفة. شمّت رائحة البحر، وسمعت صوت أمواجه الخفيفة تتراقص على شاطىء قريب جداً. ثم لاحظت ان البيت الذي توقفا أمامه، يقع على حافة خليج صغير يعج بزوارق صيادي الاسماك وقواربهم. نزلت من السيارة ولحقت به نحو ذلك المنزل المربع الشكل، فكادت تتعثر في الرمال الناعمة... بسبب توتر أعصابها وذهولها. فتح سلفاتوري الباب وأضاء القاعة، ثم أشار اليها لكي تدخل.

تأملت روزاليا ذلك المنزل الصيفي الصغير، الذي أثث بطريقة عادية جداً وبمفروشات قليلة لا تتطلّب أكثر منها أي اجازة قصيرة قرب الشاطىء. ولاحظت أن البيت مؤلف من تلك القاعة المتوسطة الحجم وغرفتين صغيرتين محاذيتين لها، بالاضافة الى مطبخ وحمام صغيرين وفجأة... سمعته يقول لها، لأول مرة منذ بضع ساعات:

ـ انه منزل صغير، أعارني اياه أحد الأصدقاء. ومع انه لا يشبه اطلاقاً القصر الذي حاول جدك ارغامنا على الاقامة فيه، ولكنه يكفينا ويفي بحاجاتنا.

ارتجف جسمها خوفاً، وسألته بعصبية وانفعال:

ـ هل تعني بأننا سنمضي الليلة هنا؟

هز كتفيه ببرودة، وقال:

ـ سنمضي ليلة، او أسبوعاً، أو شهراً! من يدري!

ثم ابتسم، وأضاف قائلاً:

ـ ستعتمد فترة اقامتنا هنا، بصورة كلية، على مدى تجاوب كل منا مع الآخر.

حبست أنفاسها لحظة، ثم تنهدت وقالت له:

ـ أحاول منذ أيام، يا سلفاتوري، أن أشرح لك أمراً بالغ الأهمية... ولكنك رفضت الاصغاء الي. فهل تسمح الآن، بأن تستمع الى ما سأقوله لك؟

استدار بسرعة نحو المطبخ، وهو يقول لها:

ـ أنا الآن جائع جداً، بحيث أنني لست قادراً على الاستماع الى أي

ثرثرة سخيفة. لماذا التسرع؟ الا يمكننا التحدث بعد تناولنا الطعام؟

لا! فأي تأخير بسيط سيزيد من صعوبة ايجاد مكان آخر، لاقامتها بقية هذه الليلة! ولكنها قررت التصرف بحكمة وروية لدى مرورها قرب السرير المزدوج، وتأجيل الحديث الى ما بعد العشاء... ذلك ان الرجل المتعب والجائع لن يكون هادئاً ومنطقياً! ستنتظر حتى يأكل ويرتاح، يصبح في وضع أكثر تقبلاً لسماع معلوماتها المذهلة.

تبعته الى المطبخ الضيق، وهي تفكر بالأسلوب الذي ستستخدمه في ابلاغه الحقيقة المرعبة. احتكت اكتافهما في تلك الفسحة الصغيرة، فشعرت بخجل عميق... وبتسارع مدهش في ضربات قلبها. تطلّع نحوها في تلك اللحظة الحرجة، بعينين ساحرتين أشعلتا النار في جسمها، وسألها:

ـ هل تحبين البيض المقلي بالزبدة، أم بزيت الزيتون؟

أجابته بصوت مرتعش الى حد ما، وهي تحاول السيطرة على مشاعرها:

ـ بالزبدة... شكراً.

ـ عظيم! هذا دليل خير وعافية بالنسبة الى زواجنا... فثمة شيء واحد على الاقل، مشترك فيما بيننا!

وضعت صحنين على الطاولة الصغيرة، وزودت كلاً منهما بسكين وشوكة. وعندما جلسا، هاجم سلفاتوري طعامه وأخذ يلتهمه بنهم واضح. سألها عما اذا كانت تريد رغيفاً من الخبز فرفضت عرضه شاكرة. صب لكل منهما كوباً كبيراً من عصير الليمون، وشرب حصته جرعة واحدة. وعندما لاحظ انها لم تأكل الا قطعة واحدة من طعامها، أو تشرب شيئاً من عصيرها، سألها بلهجة أدهشتها وازعجتها:

ـ ما بك؟ هل تشعرين بالتوتر، لأنها الليلة الأولى؟ لا، لا أصدق ذلك!

ثم ابتسم، وأضاف قائلاً:

ـ بما انك أجريت اختباراً حقيقياً في الكهف، فمن المؤكد أن هذه الليلة ستحمل مفاجآت كثيرة ومذهلة!

ـ هذا... هذا ما أود التحدث اليك... بصدده! منذ أيام وأنا أحاول...

ـ لنذهب من هذا المكان الضيق.

حدقت به غاضبة بشكل لم يسبق له مثيل، ثم صرخت:

ـ متى... متى ستستمع الى ما سأقوله لك؟

استدار نحوها فجأة، وقال لها بحدة:

ـ أوه! يبدو أن صاحبة الوجه الملائكي عصبية المزاج!

فقدت شجاعتها وجرأتها، عندما شاهدته يقف أمامها بقامته المشوقة ووجهه الوسيم الساحر.

كانت ابريل على حق... فهو ليس رجلاً عادياً! انه عنوان الرجولة ورمزها... متوحش بربري مثل ذلك الأزيم الذهبي، الذي لم تتمكن من رفع نظراتها عنه.

ـ هيا... هيا! اخبريني عما تريدين!

ـ أريد التحدث اليك عن... عن تلك الليلة... التي... التي...

لم تعرف كيف تنهي جملتها، بسبب خوفها الشديد من ردّ فعله القاسي، فقال لها بلهجة هادئة جداً:

ـ لا تخجلي من التحدث عنها. فعلى الرغم من التشدّد المذهل في عاداتنا وتقاليدنا، الا ان العلاقة السرية ليست أمراً نادراً في محيطنا ومجتمعنا، كما أن نسبة هذه العلاقات في فترة ما قبل الزواج، أصبحت مرتفعة بعض الشيء. أعرف الآن، كما كنت أعرف آنذاك، أنك شابة متحررة لا بد وأنها واجهت اموراً كهذه مرات عديدة في السابق!

استعادت روزاليا شجاعتها، لترد على النار بالنار وعلى الحديد بالحديد. قالت له بلهجة حازمة:

ـ لم تتمكن من تحقيق غايتك معي، يا سلفاتوري! فقد وقعت مغمياً عليك، بسبب الحبوب المنومة التي ذوبتها في قهوتك!

سقطت كلماتها هذه على رأسه كالصاعقة، فحدق بها مذهولاً لبعض الوقت... ثم سألها بحدة فائقة:

ـ ماذا فعلت بي؟ هل لديك الجرأة الكافية لتعترفي أمامي الآن، بأنك أوقعتني ضحية أقدم حيلة تعرفها النساء؟ هل تقولين انني تخلّيت عن حريتي، لأجل جنين لا وجود له؟

أمسك بكتفيها وراح يهز جسمها بعنف بالغ، ثم أضاف قائلاً بسخط وتأثر شديدين:

ـ لماذا؟ لماذا فعلت ذلك؟

ـ لانقذ حياتك، يا سلفاتوري... ولكي أضع حداً نهائياً لحرب الانتقام المجنونة، التي حصدت أعداداً كبيرة من الابرياء!

رماها على السرير بوحشية فائقة، قائلاً:

ـ اللعنة! هل تظنين أنني من اولئك الرجال الضعفاء الخانعين، الذين يسمحون لزوجاتهم بالتدخل في شؤون الرجال؟

ـ أنا لست زوجتك! ما من محكمة في العالم ستقبل بهذا الزواج، الذي فرض علينا! سوف أعود الى بلادي بمجرد أن تسنح لي الفرصة المناسبة، وستنسى بعد ذلك أنني موجودة... حتى في مخيلتك أو تصوراتك!

انحنى فوقها، فارتجف جسمها ذعراً وهلعاً. قال لها بلهجة تتسم بالقساوة والبرودة:

ـ لقد عقدت صفقة مع جدك، تنص على بنائه مستشفى حديثاً في منطقتنا... مقابل موافقتي على الزواج منك. ولكن المستشفى لن يكون ذا فائدة، ان لم تتوفر له المبالغ الكافية لدعمه. بطريقة مجدية. واذا كانت راحة أبناء قومي معتمدة على انجابك حفيداً للكونت، فسوف تفعلين ذلك... شئت أم أبيت!

اطفأ نور الغرفة، فتصورت روزاليا بأنها ترى النار مشتعلة في عينيه... وكأنه ذئب متوحش أو نمر جائع. انقض عليها بقساوة بالغة، فحاولت مقاومته والتملص منه. الا أن جسمها الضعيف لم يقدر على مواجهة التفجر البركاني، الذي حدث في داخلها. تألمت... بكت... ذعرت... توسلت، ولكنه رفض الاصغاء الى أنينها. بدا وكأنه شيطان مصمم على جرها الى أعماق الجحيم... الا أن ما بدأت تشعر به خلال لحظات وجيزة، لم يعد جحيماً بالمعنى الصحيح. تخيلت نفسها معلقة فوق بركة ضخمة من الحمم البركانية...

تسللت من السرير بعد بضع ساعات، فيما كان سلفاتوري ينعم بنوم عميق هادىء، وخرجت لتتأمل شروق الشمس. شعرت وكأنها قد استفاقت لتوها من... حلم جميل، ولكن كل جزء في جسمها كان يؤلمها. لم يكن سلفاتوري حنوناً أو رقيقاً معها، كما تصورته في وقت سابق. كان معها، وكأنه حيوان لا يهمه سوى استمرار ذريته. لم يهمس في اذنها أي

كلمة حب ناعمة ودافئة.

تصورت الزواج دائماً على أنه علاقة طيبة ورقيقة، وانشاء عائلة مع رجل مستعد لحمايتها ورعايتها. ارادت ان تصرخ وأن تضحك في الوقت ذاته، ولكنها سيطرت على أعصابها المتوترة وابعدت نفسها عن حافة الجنون القريبة. ومع ذلك، فانها لم تتمكن من كبح جماح الغضب الذي أحست به تجاه والديها... اللذين أبعداها طوال حياتها عن كل شيء، وحبساها في ذلك البرج العاجي... البيت. انحنت بعد فترة لتلتقط زهرة برية رائعة الجمال، فشاهدت ظلاً امامها... مع أنها لم تسمع أي حركة او وقع أقدام. خفق قلبها بسرعة وعاد التوتر الى أعصابها، الا أنها لم ترفع رأسها نحو وجهه الحزين.

ـ لماذا لم تخبرني بأنك... بأنك...

ـ لانك لم تحاول الاصغاء الى أي شيء قلته لك! ثم... هل كنت ستتصرف بطريقة مختلفة، لو أنك عرفت الحقيقة مسبقاً؟

مد يده وكأنه يريد مداعبة شعرها برقة وحنان، ثم سحبها بعد تردد ملحوظ وقال معترفاً بصراحة تامة:

ـ ربما لا! على أي حال، اعتقد أنني كنت أعرف في قرارة نفسي... أنك شابة بريئة لم يلمسها رجل طوال حياتها.

تأملت ملامح الندم والادانة الذاتية في وجهه وعينيه، فتأكد لها انه يشعر بخيبة أمل مريرة وأسف شديد. وفيما كان ينتظر هجومها الحاقد عليه، حطت قربها حمامة بيضاء جميلة وأخذت تهدل برقة وحنان... وتنادي حبيبها ورفيقها. أحس سلفاتوري فوراً بتأثير هذا المنظر العاطفي الرقيق على قلب روزاليا، فاقترب منها بحذر وقال لها بصوت هادىء ناعم يخفي وراءه مشاعر اذلال لم يعرفها من قبل:

ـ هل تسمحين لي بالجلوس قربك؟

أرادت أن تفر من وجهه هاربة الى المجهول، ولكنها تنهدت وهزت كتفيها غير مبالية بما سيفعل. جلس الرجل قربها، وأخذ يتحدث اليها بشكل مطول ومفصل. لم تفهم منه شيئاً في بداية الأمر، لأن عقلها كان مشلولاً وغير قادر على الاستيعاب. ولكنها بدأت تشعر تدريجياً، بوجود رسالة يتحتم عليها سماعها والاصغاء اليها.

- حاورت نفسي مراراً عن أسباب تعرض جزيرتنا الجميلة هذه الى لعنة الحقد والكراهية والفقر، ولكنني لم أجد جواباً شافياً على ذلك. لقد أنعم عليها الخالق عز وجل بكميات ضخمة من المعادن، وبأرض خصبة غنية، وبطقس رائع مثالي. ومع ذلك... فالفلاح ينوء تحت نير الفقر المدقع، ويعيش في وضع مؤسف للغاية. ليست جزيرتنا أصلاً بحاجة الى الصناعة ورؤوس الأموال فحسب، بل وأيضاً الى قادة اذكياء يخرجون أفراد شعبها من كهوف الماضي المظلمة ويعلمونهم على الأساليب الحديثة والمتقدمة للزراعة... عوضاً عن السماح لهم بالالتحاق بأشقائهم وأبناء أعمامهم في بلاد المهجر. انهم يحققون هناك ثروات لا بأس بها اطلاقاً، في انتاج أنواع جيدة من الفاكهة والعصير... من أراض لا تختلف أبداً عن أرضنا وفي مناخ ليس أفضل من مناخ جزيرتنا.

وضع يده برفق على خدها وأدار وجهها نحوه، قبل ان يمضي الى القول بلهجة حنونة مخلصة:

- لن أتمكن أبداً من التخلي عن هذه الأرض، يا روزاليا، لأن قدري يحتم علي البقاء مع هؤلاء الذين يحتاجون اليّ والى مساعدتي. لو ذهبت الى اي بلد آخر، لنعمت بالثراء وتمتعت عائلتي... زوجتي وأولادي... بفوائد المستويات العالية للمعيشة، التي يعتبرها الآخرون أمراً عادياً جداً. أما هنا، فلا يمكنني أن أعد بأكثر من حياة قروية بسيطة...

شعرت روزاليا في تلك اللحظات الوجيزة، التي سبقت سماعها جملته الأخيرة، بأن عصفور السعادة الصغير الذي تسجنه في أعماق قلبها... بدأ ينتفض ويتململ طالباً حريته. نظرت الى سلفاتوري بعينين صادقتين، وقالت له:

- ليست الثروة المادية شيئاً يذكر، بالنسبة الى... الى...

اقترب منها فجأة، وبدأ يحثها بلهفة واضحة... قائلاً:

- بالنسبة الى ماذا، يا روزاليا؟ هيا، اخبريني! هل كنت على وشك التفوه بكلمة الحب، يا روزاليا؟

ثم همس في اذنها بصوت دافىء للغاية:

- اذا كان الأمر هكذا، وهذا ما أنا متأكد منه، فالحب... يا حبيبتي... هو الشيء الذي يمكنني منحك اياه بوفرة! أحبك، يا

روزاليا... أحبك من صميم قلبي!

رمت نفسها عليه دون حياء أو خجل، فضمها الى صدره بقوة وهو يتمتم قائلاً:

- ما أروع قلبك الحنون الكريم، يا حبيبتي الطيبة الجميلة! انت حبي الأول والأخير...!

تمتعت روزاليا لبعض لحظات بين ذراعيه، ولكنها لاحظت أنه يمتنع عن القيام بأي شيء... كيلا يخيفها أو يزعجها. رفعت وجهها نحوه وأغمضت عينيها. كانت الدعوة واضحة، فلم يتردد في تلبيتها... وأطلق سراح النمر الثائر الذي يحبسه في داخله.

حملها بين ذراعيه وتوجه بها الى غرفة النوم، فشعرت بأن الأرض والسماء تموجان بها. وعندما توقف لحظة لفتح الباب، وقع نظرها على بركان اتنا المجاور. وما أن مددها على السرير، حتى ظهرت على وجهها ابتسامة خفيفة... ماكرة. فزوجها البركاني، مثل اتنا، لا يظل نائماً طوال الوقت... ولكنه ينتفض ويثور مرات عديدة. وكما يجرؤ هؤلاء القرويون على العيش فوق سفوحه المهددة بالدمار، ويعرفون متى يفرون طلباً للنجاة ومتى يكونون آمنين قربه، هكذا ستفعل هي في حياتها مع سلفاتوري.

وقبل مضي دقائق قليلة على دخولها ذلك المنزل الصغير، بدأت مشاعرها وأحاسيسها تحذرها وتنذرها... بأن الفرار الآن جحيم، والبقاء نعيم...